نصائح منهجية

لطالب علم السنة النبوية

تأليف

الشريف حاتم بن عارف العوني

دار الصميعي للنشر والتوزيع

ⓒ دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العوني، حاتم عارف

نصائح منهجية لطالب علم السنة النبوية / حاتم عارف العوني - ٣ط - الرياض، ١٤٣٢هـ

١٥٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٤٨-٨٠٥٠-٦٠٣-٩٧٨

١- علوم الحديث ٢- الإسلام والعلم أ- العنوان

ديوي ٢٣٠ ١٤٣٢/٧٣٢٧

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٧٣٢٧

ردمك: ٤-٤٨-٨٠٥٠-٦٠٣-٩٧٨

دار الصميعي للنشر والتوزيع /
المملكة العربية السعودية
الرياض ص. ب: ٤٩٦٧
الرمز البريدي ١١٤١٢
المركز الرئيسي: الرياض- السويدي -
شارع السويدي العام
هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩،
فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة - بجوار مؤسسة الشيخ
محمد بن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢١٧٢٨ تلفاكس: ٣٦٢٤٤٢٨
الموزع في المنطقة الغربية والجنوبية
/ جوال ٠٥٠٩٧٧١٥٦٨
مدير التسويق ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
البريد الالكتروني:
daralsomaie@hotmail.com

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الثالثة
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

الصف والإخراج الفني
بدار الصميعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله : أنعم فأجزل ، وهدى فثبّت ، وقدّر فلطف ، واطلع على ذنوبنا فستر ، وستر فغفر ، وغفر فرحم ، ورحم فرضي ، ورضي ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

والصلاة والسلام على من به هُدينا ، وبالغ نُصحه ورحيم بلاغه نُجِّينا، كلَّما سَعِدَ بسُنّته مُقتدي ، ورَشَدَ بآثاره مُقتفي ، وكلّما حنَّ مُعْرِضٌ عنه إلى هُداه ، وتمَنَّى ضياءَ مَحَجَّتِهِ الغُواة . فصلواتك اللهم وسلامك وبركاتك على حبيبك المصطفى ، وعلى أمهات المؤمنين قدوةِ كلِّ من طابَ وزكى ، وعلى عَقِبِهِ سادةِ الورى .

أمّا بعد : فإن طلب العلم من أعظم العبادات ، وثوابه يَفْضُلُ ثوابَ أكثرِ القُرْبات ، وسُبُلُ تحصيلِه سُبُلُ الجنّات ، تُظِلُّ الملائكةُ طالبِيْهِ بأجنحتها خاضعات ، وتنزل على مجالسهم السكينةُ والرحمات.

فرضيَ اللهُ عن سهر تلك الليالي في الجدِّ والتحصيل، وأكْرِمْ بتلك الخُطى في طلب علوم التنزيل، وأَعْظِمْ بالزّاهدين إلا في ميراث النبوة ، الهاجرين المضاجعَ والأوطان الآخذين الكتاب بقوة .

فإن عَجِبَ أحدٌ من هذا الثناء القليل ، في طالب العلم الجليل ؛ سألته بالله :

هل دبّتْ على وجهِ الأرضِ خُطًى أشرفُ من خُطى طالب علم ؟!

وهل حَوَتِ الأسحارُ والأبكارُ أجدَّ منه في طلبه ؟!

وهل مرّ على الأسماع ألذُّ من دندنة الـمُـتَحَفِّظِين وزَجَلِ القارئين ؟!

وهل امتلأتِ القلوبُ هيبةً لمثل مُنْكَبٍّ على كتاب ؟!

وهل انشرحتِ الصدورُ إلا في مجالس الذكر ؟!

وهل انعقدتِ الآمالُ جميعُها إلا على حِلَقِ التعليم ؟!

وهل نزلت السكينةُ والرحمةُ على مِثْلِ الدارسين لكتاب الله العظيم ؟!

وهل تضاءلت عروشُ الملوك إلا عند منابر العلماء ؟!

وهل عُمِّرَتِ المساجدُ في غير أوقات الصلوات بمثل مجالس التعليم ؟!

أخبروني ؟ بالله عليكم!!!

ثم أسألكم بالله : هل تعلمون خيرًا من شاب في هذا العصر ، هجر الدنيا وزهد في ملذاتها ، ونأى بعيدًا عن شهواتها ، وانْعَزَلَ عن فتنها التي تستفزُّ الحليم ، وانقطع عن إغواءاتها التي تستخفُّ بالرَّزين ، وترك الناس على دنياهم يتكالبون ، وهجر من أهله وإخوانه تنافسَهم على القصور والأموال والمناصب ، فإن مرّ على اللغو .. مَرَّ مُرورَ الكرام ، وإن تعرَّضَ له الجاهلون .. أعرض وقال : سلام . وهو (مع ذلك) شاب في عنفوان الشباب ، أمامه مستقبل عريض ، وعليه مسئولية بناءٍ جديد ، وينظر إلى الأفق البعيدِ نظرةً ملؤها الآمال والأحلام ، تفور فيه غرائزُ الشهوات ، ويجيش فؤادُهُ بالعواطف ، وتتفجر دماؤه حماسًا ؛ ثم هو هو ذلك الذي تجاوز هذا

كلَّه !! وجعلـه وراءه ظِـهـرِيًّا !! وأقبل على العِلْمِ..على مرارته ، وانـكبّ على الكتاب.. على ملالته ، فإذا حَنَّ إلى عناق كاعب .. خالفتْـهُ يدا كاتب ، وإذا اشتهت شفتاه أن يرتشف الرُّضَاب.. تَـمْتَمَ مُلْـتَـذًّا بقـراءة كتـاب ؛ قطع الأيام في التحصيل ، وسهر الليالي على الدرس والترتيـل ؛ فـتراه يقـرأُ حتى تزوغَ عينُهُ ، ويكتبُ حتى تكلَّ يدُهُ ، ويدرسُ حتى يَكَدَّ ذهنُهُ !!!

أخبروني.. من أفضل من هذا ؟!!

مع ذلك فإنه يرى أن الذي هو فيه: هو الحياة حقًّا ، وجنة دار الفناء صدقًا ، يرحم أهلَ الدنيا ، ويحنو على أبناء الملذات ؛ لأنه يعرف أنه على برنامج العلماء ، ومنهج الأولياء ، وخطة الفقهاء ، وغاية الكبراء ، ومعارج الأتقياء .

فيترنم بقول القائل :

لَـمَحْـبَرَةٌ تُـجالـسني نـهـاري ... أحـبُّ إليَّ مـن أُنـسِ الـصّديقِ
ورِزْمَةُ كاغَـدٍ[1] في البيت عنـدي ... أحـبُّ إلي مـن عِـذْلِ الدَّقـيقِ
ولـطـمـةُ عـالـمٍ في الـخـدّ منّي ... ألـذُّ لـديَّ مـن شُرْبِ الرّحيـقِ

ولـستُ أنـا بالـذي يـذكر فـضلَ طالـب العلـم ، إذ قـد ردّدتْ فـضلَه المحاريبُ وأصداؤها ، وضجّت به أروقةُ المساجد وقبابُها ، وتعبّـد بترتيلـه

---

(١) الكاغَد (بالدال المهملة والذال المعجمة): هو ورق الكتابة .

المتهجّدون ، وتقرّب بتدبره أهلُ العلم الراسخون ؛ وأجلُّ من ذلك : فقد نزل به الروحُ الأمين ، على قلب سيد المرسلين ﷺ ؛ وأجلّ من ذلك : فقد تكلم به الله الذي لا إله إلا هو الرحمنُ الرحيم ؛ فقال تعالى في الحث على سؤال التعلُّمِ - الذي هو أولُ درجاته - : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ، وقال عز وجل في الأمر بالرحلة لطلب العلم : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] ، وما أمر سبحانه نبيَّه ﷺ بطلب الزيادة في شيء في الدنيا، إلا من العلم، فقال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] ؛ وأشاد سبحانه - أيّما إشادة! - بفضل أهل العلم، ورَفَعَ من شأنهم ، وأعلى من قدرهم ، بما يعجز عن بيانه إلا البيانُ المبين ، من كلام رب العالمين ، فقال عزّ من قائل ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] ، وقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقال سبحانه ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ، وقال عز شأنه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] .

فلما كانت لطالب العلم تلك المكانة التي نوّهنا ببعضها ، تبيّنَ أنه على صِغَرِ سِنِّهِ طالبٌ جليل ، و بسلوكه مسالكَ الطلبِ (على قلّة عِلْمِه) استحق التبجيل.

ومن حق هذا الذي يقفو آثارَ العظماء، ويلوثُ على رأسه عمامةَ العلماء ؛ أن يكون له نصيبٌ من التوجيه كبيرٌ ، وحظٌّ من النُّصْحِ وفيرٌ.

ولما طلب مني مكتبُ التوعية بمكة المكرمة أن أُلْقي كلمةً عن منهج القراءة في كتب الحديث والمصطلح ، ورأيتُ أن الرفض لا يسعني ، أجبتهم إلى رغبتهم ، على ضعفٍ وعجزٍ . لكني من حين أجبت ، عزمتُ على أن أجعل المنهجَ المنصوحَ به منهجاً مستقًى من مناهج العلماء ، ودَرْبًا نصَّ الأئمةُ على أنهم قد ساروا عليه ، أو دلَّت سِيَرُهُم وأخبارُهم وعلومُهم على أنهم قد طَرَقُوهُ . وإنما عزمتُ على هذا العزم ، لأن منهجَ تَعَلُّم أيِّ علمٍ يجب أن يُؤخذ عن العلماء بذلك العلم ، الذين عرفوا دروبَهُ ، وأحاطوا بِسُبُلِهِ ، وأكسبتهم الخبرةُ به بصيرةً في منهج تَلَقِّيهِ ، ووسّعت فنونُه مداركَهم بأحسن الوسائل المُبَلِّغَةِ إليه .

وتمّ ما أعددته لتلك الكلمة في الشهر الأول من عام (١٤١٨هـ) ، وألقيتها في هذا التاريخ.

ثم تكرر إليّ الطلبُ بنشرها مكتوبةً ، حُسْنَ ظنٍّ من الطالبين ، فرأيتُ أن إجابةَ سؤالهم فيه تحقيقُ فائدةٍ .. وإن صَغُرَت ، وتوجيهُ نصيحةٍ لطلبة العلم لا تخلو من نفع .

ومن ثَمَّ .. فهذه الرسالة في أصلها كلمةٌ مُلقاةٌ ، ضمن سلسلةٍ من الكلمات التي نظّمتها إدارةُ مكتب التوعية بمكة المكرمة (مشكورةً مأجورةً

إن شاء الله تعالى). وقد سبقت هذا الكلمةَ كلماتٌ حول آداب العلم وطلبه ومناهجه عموماً، ثم خُصِّصت علومُ الحديث بالدرس الذي أقوم بنشره اليوم. فيُعلَمُ بذلك أن رسالتنا هذه مسبوقةٌ بما يُغني عن تكراره فيها، ولهذا فقد جاءت مقتصرة على الوسائل المبلِّغَةِ طالبَ العلم إلى أن يصبح محدثًا عارفًا بسنة النبي ﷺ، دون التطرُّقِ إلى أبواب العلم الأخرى .. على جلالتها وفضلها.

فأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الورقات، وأن يستخرج بها من قلب مؤمنٍ بظهر الغيب دعواتٍ صالحات، وأن يجعلها في موازين الحسنات.. آمين.

والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتب :

الشريف حاتم بن عارف بن ناصر العبدلي العوني

تمهيد

هناك مبادئُ عامةٌ يُنصح بها كلُّ طالب علم ، ينبغي عليه أن يضعها نُصْبَ عينيه عند أول عزمٍ له على السير في طريق العلم الطويل. وبعض هذه المبادئ العامة سوف تكون مدخلَنا إلى الجواب عن السؤال الذي يسأل عنه قارئ هذه الورقات ، وهو: كيف أصبح محدثًا عارفًا بسُنّة النبيّ ﷺ ؟

فلا شك أن أول ما يلزم من أراد أن يكون طالب علم (أي علم من العلوم) ، أن يتعرف على العلوم من جهة موضوعاتها وغاياتها والثمرة الناتجة عنها. لأنه بذلك يعرف شرفَ كل علمٍ وفضلَهُ ، ومنقبةَ حملةِ ذلك العلم ورفعةَ قَدْرِهم. وهذا يجعله قادرًا على ترتيب العلوم على حسب أهميتها ، ووَضْعِها في مراتبها من أولوية التعليم .

فإذا ما ابتدأ طَلَبَ عِلْمٍ من تلك العلوم بعد ذلك ، وقد عرف فضائلَه ومناقبَ حملته ، فعرف بذلك أنه إنما ابتدأ به لأنه أحق من غيره ببداية التعلُّم ، وأولَى مما سواه بأن يكون باكورةَ الطلب ؛ زاده ذلك إقبالًا على العلم ، وحرصًا عليه ، وصبرًا في تحصيله ، وثقةً بصواب خطواته ، واطمئنانًا على صحة منهجه . فلا يزيده بعد ذلك طولُ الطريق إلا جَلَدًا ، ولا وعورته إلا جدًّا ، ولا صعوبته إلا مثابرةً ، ولا تعبُ جسده فيه إلا راحةَ نَفْسِهِ ، ولا اغترابُه من أجْلِه إلا أُنْسًا به ، ولا قِلَّةُ ذاتِ يده لانْشِغَالِهِ

به إلا فرحًا بالاستكثار منه . حتى يَبْلُغَ المُنى ، ويحصُدَ الجَنَى .

لذلك حرصتُ أن لا تخلو هذه الورقات من إلماحاتٍ عن شرف علم الحديث وبيان فضل المحدثين؛ وهذا هو العنوانُ الأولُ بعد هذا التمهيد.

وبعد أن تعرَّفَ طالبُ العلم على ما سبق ، ينبغي عليه أن يستنصحَ أهلَ العلم الذي رأى أن يبدأ به ، ويطلبَ منهم أن يوقفوه على خصائص ذلك العلم التي تُمَيِّزُهُ عن غيره من العلوم ، وأن يقرأ بعض ما أُلِّفَ في التعريف بذلك العلم وفي بيان سِماتِهِ التي تختص به . حيث إن لكل علم ملامحَ كُبرى تفارقه عن غيره من العلوم ، وقَسَماتٍ خاصةً به كالتي تُباينُ بين الأشخاص المختلفين . وهذه الملامحُ والقسماتُ هي في الحقيقة سرُّ كلِّ علم ، وكاشفُ لُغْزِ كل فنّ ، ومفتاحُ كنوزِ دقائق العلوم . وتظهر آثار العلم بهذه الملامح (أو عدم العلم بها) على كل مسألةٍ جزئية منه ، لأن بصماتها لا تخلو منها جميعُ جزئياته.

وستعرف أهميةَ الابتداء بإدراك خصائص علمٍ ما ، وسوف تدرك ضرورة فَهْمِ مزاياه قبلَ الإقبالِ عليه ؛ من جهتين اثنتين :

الأولى : أن تلك المزايا والخصائص تُمكِّنُ طالبَ العلم من أن يُقَدِّرَ ما إذا كان باستطاعته استيعابُ ذلك العلم ، إلى أن يبرع فيه ، أو أنه لا يستطيع ذلك ؛ على حَسَبِ مواهبه الفطرية ومُيُولِه العلمية . وذلك فيما إذا وازنَ طالبُ العلم (بصدقٍ وموضوعيّة) بين تلك المميزات وقُدْرَتِهِ على التعلّم .

فكم من طالب علم تعثّر في حياته العلمية بسبب عدم قيامه بهذه الموازنة ، وكم من طالب علم لو حاول إدراك تلك المميزات للعلوم لوَضَعَ قدمَه في أوّل الطريق الصحيح لعلم منها ، ثم برع وأبدع فيه بعد ذلك .

الثانية : أن تلك الخصائص والمميزات الكبرى لأيّ علمٍ من العلوم تستلزم أسلوباً خاصاً في طلبه ؛ ولكل خصيصة منها أثرٌ في تحديد منهج التحصيل في ذلك العلم . ووقوفُ طالبِ العلمِ على هذا الأمر المهمّ وإدراكُه له ، يجعله على وَعْيٍ بالأسلوب الصحيح لطلب ذلك العلم ، عارفاً بعقباتِ علمه وصعوباته ، مستعدًّا لها بوسائل تجاوزها قبل التعثُّر بها؛ فهو بهذا الوعي والمعرفة محيطٌ بالغاية التي يريد ، حتى كأنه بلغها (وإن لم يبلغها) ، لشدة وضوح سبيلها أمامه ، ولعدم خوفه من حواجز تحول بينه وبينها.

وهذا ما جعلني أُثَنِّي (بعد ذكر شرف علم الحديث وشرف أهله) بأربع مميزات لعلم الحديث ، هي في ظني أهمّ خصائصه ، وأوضح ملامحه ، التي تستوجب تجاهها طريقة خاصة في الطلب ومنهجاً معيناً في تعلم علم الحديث.

ثم ختمتُ هذه الورقات بذكر خطة دراسية منهجية مختصرة للحديث النبوي الشريف ولعلومه ، حاولتُ خلالها وضعَ مستوياتٍ دراسية مرتبة على نظرية التدرج في طلب العلم ، من البداية بالمجملات إلى الوصول إلى

المفصلات الموسَّعات من كتب العلم.

ومن خلال هذه العناصر أحسب أني قد ساهمتُ في الإجابة على سؤال يقول: كيف أصبح محدثًا عارفًا بسنة النبي ﷺ.

وإليك الإجابة (بعون الله تعالى).

شرف علم الحديث وشرف حملته

لا يشكّ مسلمٌ من المسلمين أن القرآنَ الكريمَ وعلومَه أشرفُ العلوم على الإطلاق ، وأنه أنفع العلوم وأجلُّها وأعظمها .. بلا استثناء.

وأهمُّ علوم القرآن الكريم و أعظمها ، وما من أجله أُنزل ، هو : تدبُّرُ آياته ، وفَهْمُ معانيه ؛ لأن الغاية العظمى من إنزال القرآن هي العمل به ، والاعتبار بمواعظه ، والاستضاءةُ بحِكَمِهِ ؛ وذلك لا يحصل أبدًا قبل فهم معانيه وتدبُّرِ آياته ؛ وإلا فكيف يعمل بالقرآن من لم يفهم القرآن ؟!

ولا يتمُّ ف هم كلام الله تعالى ، ولا يمكن أن ندرك معاني كتاب الله المجيد ، إلا بسنة النبي ﷺ وعلومها ، لأن السنة هي البيان النظري والعملي للقرآن الكريم .

ومن هنا ندخل إلى أعظم ما يبين مكانه السنة وعلومها ، وإلى منزلتها بين العلوم على الإطلاق ؛ وهو : أنه لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم ، وإلى معرفة دين الإسلام الذي لا يقبل الله تعالى سواه ، إلا بسنة النبي ﷺ وعلومها!!

أو بعبارة أخرى: بما أن القرآن الكريم أشرفُ العلوم ، وأشرفُ علومِه فَهْمُ معانيه ، وهذا الفهم لا يكون إلا بالسنة = فالسنةُ إذن أشرفُ علوم القرآن ، أو قُلْ: السنةُ أشرف العلوم !!

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤] ، فمنطوق هذه الآية الكريمة يقول : لقد أنزلنا القرآن عليك يا رسولنا لكي تُبيِّنَهُ للناس ، وهذا الترتيب يُلقي في الأوهام (قبل التأمُّل) أنّ بيانَ السنة هو الأصل الذي نُزِّلَ القرآنُ لأجله !! إذ لو أراد البشر أن يُعبِّروا عن علاقة السنة بالقرآن ، لجاء تعبيرهم المباشر الصريح بنحو قولهم: «إنما جاءت السنة لكي تُفَسِّرَ القرآنَ و تُبيِّنَهُ»، فيكون بَيِّنًا بهذا الترتيبِ البشريِّ والتعبيرِ الصحيح للمخلوقين أن الأصل هو القرآن وأمّا السنة فهي الفَرْعُ والتَّبَع . لكنّ إعجازَ كلامِ الله تعالى اكتفى لتقرير هذا الأمر الذي لا يحتاج إلى بيان (وهو أن القرآن هو الأصل) بإشارة دلالتين : الأُولى : تخصيصُ الذِّكْر (وهو القرآن) في هذا السياق بكونه هو المُنزَّل ، والثانية : بأنه هو المبيَّنُ أيضًا ، والمبيَّنُ في العادة هو الأصل ، وأما الشَّرْحُ فهو حاشيته وفَرْعُه . لكن بَقِيَ ذلك الترتيبُ القرآنيُّ العجيب ، بدلالته الغريبة المُنوَّهِ بها آنفًا ، والتي تُوهم بأن السنةَ هي الغايةُ من إنزال القرآن ، ليؤدّي هذا الترتيبُ معنًى لا يؤدّيهِ إلا هو ، مُشِيدًا بتلك العلاقةِ القويةِ الوشائجِ العميقةِ الصلاتِ بين القرآن والسنة ، التي تَصِلُ إلى درجة أن تَدُلَّ على أنّ القرآنَ غيرُ مُحَقِّقٍ الغرضَ من إنزاله ؛ إلا ببيان السنة !!

وهذا من إعجاز القرآن في الإشادة بمكانة السنة من القرآن ، وفي التأكيد

على عدم استغناء القرآن عنها ، وعلى أن ذلك الاستغناء المُدَّعَى سيؤدّي إلى ضياع القرآن لدى ذلك المستغني عن بيان السنة له ؛ لأن الجهل بمعاني القرآن هو الضياع الحقيقيّ له !!

ولهذه المنزلة العليا للسنة ، ولعلاقتها القوية الوشائج والصلات بالقرآن الكريم ، كان يقول غير واحد من السلف ، منهم مكحول الشامي (ت ١١٨هـ): «القرآن أحوج للسنة من السنة للقرآن»[١] ؛ وذلك لأن إجمال القرآن يحتاج إلى تفصيل السنة ، ومتشابه القرآن تُفَسِّرُهُ السنة ؛ في حين أن السنة – غالباً – مفصَّلةٌ مبيَّنة واضحة .

ولهذا يصح أن يُقال عمن يتعلم السنة : إنه يتعلم القرآن ، ولمن يقرأ السنة: إنه يقرأ تفسير القرآن!!

وقد كان ذلك واضحاً تمام الوضوح عند السلف ، ولهذا لما قيل لـمُطَرِّفِ ابن عبد الله بن الشِّخِّير (ت ٩٥ هـ) :«لا تحدثونا إلا بالقرآن . قال مطرف: والله ما نريد بالقرآن بَدَلًا ، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منّا »[٢] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر. بتحقيق أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي: الدمام ، الطبعة الأولى (١٤١٤ هـ)= (رقم ٢٣٥٢ ، وانظر رقم ٢٣٥١ – ٢٣٥٤) ، وشرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين ، بتحقيق عادل محمد (رقم٤٨) .
وانظر أيضًا : الفقيه والمتفقّه للخطيب ، بتحقيق إسماعيل الأنصاري (١/ ٧٣) .

(٢) بيان جامع العلم وفضله لابن عبد البر (رقم ٢٣٤٩).

ويجب التنبُّهُ إلى أن تفسيرَ السنة للقرآن ليس يقتصر على التفسير الصريح لمعانيه من النبي ﷺ ، كأن يذكرَ النبي ﷺ آيةً ثم بشرحها شرحًا مباشرًا . نعم هذا من تفسير السنة للقرآن ، لكنّ الخضمّ الأعظمَ منه هو جميع سنة النبي ﷺ : القوليّة والفعلية والتقريرية ، وسيرته ومغازيه وحياته . ولهذا لمّا سُئلت عائشة – رضي الله عنها – عن خُلُقِ النبي ﷺ ، أرشدتِ السائلَ إلى النظر في القرآن ، عندما قالت : « كانَ خُلُقُه القرآن »[1] . ومن ثَمَّ .. يحقُّ لمن سأل عن القرآن ، أن يُحال إلى سنة النبي ﷺ ، كما أحالت عائشةُ السائل عن السنة إلى القرآن !

وهذا أكبر ما يبيّن مكانة السنة ، وعظم أهميتها ، وأولويتها على غيرها من العلوم .

ولقد بيّنَ الله عزّ وجل مكانة السنة وشَرَفَها في القرآن العظيم ، في آيات كثيرات ؛ منها آيات كثيرة في الأمر بطاعة النبي ﷺ والتحذير من مخالفته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. كقوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] ، وكقوله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ، وكقوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، وكقوله عز شأنه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، وكقوله عز من قائل : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ، وكقوله عز حُكْمُه : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] ، وكقوله لا ربَّ سواه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، في غيرها من آيات مباركات كثيرات.

ففي هذه الآيات حثٌّ على تعلم سنة النبي ﷺ ، بتعلُّم أصولها ومصطلحها، من العلوم التي يُمَيَّزُ بها صحيحُ السنة من سقيمها. لأن الأمر بطاعة النبي ﷺ والترغيبَ في الاقتداء به لا يمكن امتثالُهُ (بعد وفاة النبي ﷺ) إلا بالنقل والإسناد اللذين اجتمعت فيهما شروط القبول ، وتحقُّقُ شروط القبول أو عدمُ تحقُّقِها في النقل عن النبي ﷺ لا يُمكن أن يُتَوَصَّلَ إلى إدراكه إلا بالعلوم التي تخدم ذلك ، وهي علومُ الحديث : أصولَه ومصطلحَه . إذن فالأمر الإلهي بطاعة النبي ﷺ والاقتداء به متضمّنٌ أمرًا إلهيًّا بتعلم علم الحديث ، لأنه لا سبيل إلى امتثال الأمر الأول إلا بعد امتثال الأمر الثاني ، وما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب ، ولو كفائيًّا !

وإذا كان فهمُ القرآن الكريم ، وطاعةُ الله تعالى ورسوله ﷺ ، والعلمُ بأحكام هذا الدين (دين الإسلام) وشرائعه وآدابه = لا يكون إلا بعلوم الحديث ؛

علمتَ ما هي مكانة هذه العلوم!! وفي أي قمةٍ من مراتب العلوم تكون !! ثم علمتَ شرفَ أهلِ الحديث !! وعظيمَ فضلهم وكبيرَ أثرهم في الأمة !!!

وقد جاءت السنة نفسُها ببيان فضل أهل الحديث وشرفهم ، في أحاديثَ كثيرةٍ وآثارٍ ذواتِ عددٍ ؛ حتى صنّفَ الخطيبُ البغدادي (ت ٤٦٣هـ) كتاباً في ذلك بعنوان (شرف أصحاب الحديث).

ومن هذه الأحاديث : قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة**»[١].

قال عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) ، ويزيد بن هارون (ت ٢٠٦هـ) ، وعليُّ بن المديني (ت٢٣٤ هـ) ، وأحمدُ بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، والبخاري (ت ٢٥٦ هـ) ؛ قال هؤلاء الأئمة كلُّهم في بيان الطائفة المنصورة: «هم أصحاب الحديث»[٢]. بل عبارة الإمام أحمد ، وقبله يزيد بن هارون : «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم».

وأيُّ طائفة أحق بأن يكونوا هم تلك الطائفة الظاهرة المنصورة ، من الذين حفظوا الدين ، ونقلوا الملة ، ونشروا السنة ، وقمعوا البدعة ؛ وهم أصحاب حديث النبي ﷺ ، وحُرّاسُه اليَقَظةُ الأُمَناء ، أهدى الناس بالسنة ،

---

(١) حديث صحيح متفق عليه ، صح عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) انظر: شرف أصحاب الحديث ، للخطيب. تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، الطبعة الأولى ، نشر دار إحياء السنة النبوية (رقم ٤٦ – ٥١).

وأتبعهم للأسوة الحسنة ، بقيّة الأصحاب ، ومِرْآةُ الرسول ﷺ !! فلولاهم (بعد فضل الله تعالى) لما كان هناك فقيهٌ ولا مفسِّرٌ ، ولا عالمٌ ولا فاضل!! بل لولاهم لما كان هناك مسلمٌ مُوَحِّدٌ !!!

ولـمَّـا قال النبي ﷺ : «**إن أَوْلَى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة**»[١] ، ذكر أهلُ العلم أن أسعدَ الناس بهذا الحديث هم المحدثون!

قال ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) بعد إخراجه هذا الحديث في صحيحه : «في هذا الخبر دليلٌ على أنّ أَوْلى الناسِ برسوله ﷺ في القيامة : أصحابُ الحديث ، إذ ليس من هذه الأمة قومٌ أكثرُ صلاةً عليه ﷺ منهم»[٢].

وقال أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ): «وهذه منقبة شريفة يختص بها رواة الآثار ونقلتها ، لأنه لا يُعْرَفُ لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول ﷺ أكثر مما يُعرفُ لهذه العصابة نسخاً وذكراً»[٣].

ومن تردّدَ في هذا الذي ذكراه (عليهما رحمةُ الله) ، فليوازن بين صفحةٍ أو صفحاتٍ من صحيح البخاري مثلاً وصفحة أو صفحات من أي كتابٍ

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه (رقم ٤٨٤) ، وابن حبان في صحيحه (رقم ٩١١) ؛ وحسنه وصححه غير ما واحد من الأئمة ، كما تراه في تخريج الإحسان ، والمعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢١ رقم ٩٨٠٠)

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (رقم ٩١١) .

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب (٣٥).

آخر في أحد العلوم الفاضلة (مما سوى الحديث) ، كالتفسير والفقه وأصوله والعقيدة ، ليظهر له مِصْداقُ قولِ ذينك الإمامين (عليهما رحمة الله) ، ليعرف حقًّا أن أهل الحديث هم أولى الناس بالنبي ﷺ يوم القيامة!!

ولله دَرُّ القائل :

يـــا ســـادةً عنـــدهم للمـــصطفى نـــسبُ
رِفقًـــا بمـــن عنـــدهم للمـــصطفى حـــسبُ
أهـــلُ الحـــديثِ هُـــمُ أهـــلُ الرســـولِ ، فـــإنْ
لم يَـــصْحَبُوا نَفْـــسَه ، أَنفاسَـــه صَـــحِبوا

و(الجزاء من جنس العمل) ، فكما كان أهلُ الحديث أهلَ حديثِ النبي ﷺ في الحياة ، وهم ألصق الناس به ﷺ وبأخباره وسِيرته وبذِكْرِه في الدنيا ؛ كانوا هم أيضاً أولى الناس به في الآخرة !! ويا له من شرفٍ ومكانة وفضل لا يدانيه شيء أبدًا !!!

ولله در القائل:

دينُ النبـــيِّ محمـــدٍ أخبـــارُ ... نعم المطيَّـــةُ للفتـــى الآثـــارُ
لا تَعْدِلَنَّ عن الحـديثِ وأهلِهِ ... فالرأيُ ليـلٌ والحـديثُ نهـارُ
ولربما غَلِطَ الفتى أَثَـرَ الهُـدى ... والـشمسُ بازغـةٌ لهـا أنـــوارُ

ورحم الله القائل :

دِينُ الرسولِ وشَرْعُـهُ أخبـارُهُ ... وأجـلُّ علـمٍ يُقْـتَـنَى آثـارُهُ

مَنْ كان مُشْتَغِلًا بها وبِنَشْرِهَا بين البريَّةِ لا عَفَتْ آثارُهُ

ثم إن مكانة السنة تزداد أهميةً فوق ما سبق كله ، وتشتدُّ حاجة الأمة إليها زيادةً على ما تقدم ، عند ظهور الفتن وكثرة البدع والمحدثات .

ولذلك لما أوصى النبي ﷺ أصحابه ، ووعظهم موعظةً بليغة ، وَجِلَتْ منها القلوبُ وذرفت لها العيون ؛ فقال في وصيته تلك عليه الصلاة والسلام : **«فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة»**[(١)] .

ولذلك يقول سفيانُ الثوري (عليه رحمة الله) : «ما كان طلب الحديث خيراً منه اليوم . فقيل له : يا أبا عبد الله ، إنهم يطلبونه وليس لهم نية ؟! قال: طلبهم إياه نية »[(٢)] .

فينبه هذا الإمام (رحمه الله) على ازدياد فضل طلب الحديث في زمانه ، عن الأزمان التي سبقته ؛ وهو من أتباع التابعين!! وفي القرون الفاضلة!! فكيف بزماننا !! وقد عمّتِ الفتنُ ، وكَثُرَتْ ، وتتابعت ، واستحكمت الأهواء والبدع وطمّتْ ، وإلى الله الملتجأ وهو المستعان !

---

(١) حديث أخرجه أصحاب السنن ، وصححه الترمذي وغيره. وهو من أصول الدين ، ومن قواعد السنة.

(٢) الجامع للخطيب (رقم ٢٠٧، ٧٧٩) ، وذم الكلام للهروي (رقم ٩١٧) .

وأما قوله (رحمه الله) لمن قال له عن أهل الحديث: «إنهم يطلبونه وليس لهم نية ، فقال: طلبهم إياه نية» ، فله معنيان :

الأول : أنه أراد أن ينبه إلى فقهٍ دقيقٍ ، إذ يجيب ذاك الذي اتّهم طلبة الحديث بقلّة الإخلاص في طلبهم ، بأن مجرد طلبهم للحديث عمل فاضلٌ يؤجرون عليه بإذن الله تعالى . لأن الأعمال الفاضلة ، وخاصة التي يتعدّى نفعها نفس العامل ، إذا لم يكن الدافعُ للقيام بها نيةً سيئةً ، كالرياء والسمعة ومطامع الدنيا ، فإن صاحبها حينها مأجورٌ بالعمل نفسه ، إذا كان الدافعُ للقيام به مَحَبّةَ العمل والتعلُّقَ به (وهو عند أهل الحديث شهوة الحديث ومحبته) ، فهو مثابٌ وإن غفل عن الإخلاص لله تعالى والْتَهَى عن ابتغاء ثوابه!! وذلك لأن العمل ذاته فاضلٌ مُصْلِحٌ ، لا يخلو من أن ينتفع به غيره ، وتتعدى فائدته إلى من سواه . فيؤجر بالنفع المتعدِّي وبالمصلحة الحصلة به لغيره .

ولهذا لمّا قيل للإمام المجاهد عبدالله بن المبارك (ت١٨١هـ) :« إن الناس قد ذهبت أيامهم في السماع ! فمتى العمل ؟! قال (رحمه الله) : ما داموا في السماع ، فَهُم في العمل»[1] . ووضّحَ ابن المبارك جوابه لسائل آخر، حيث أجابه بقوله : «طلب العلم عمل» ، فقال السائل : فسد الناس يا أبا عبد الرحمن !! فقال مجيبًا

(١) ذم الكلام للهروي (رقم١٠٢٠) .

عليه : «الأمر بعدُ صالحٌ ، ما دام في الناس من يطلب الحديث »[١] .

الثاني : لعله يقصد أن طلب الحديث يُوصِلُ إلى حُسْنِ النية ويُلْجئُ صاحبَهُ إلى الإخلاص ، كما كان يقول غير واحد من السلف: « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله »[٢].

وأيَّ المعنيين قَبِلْتَ – وكلاهما مقبول – فهو وَجْهٌ آخرُ لشرفِ أهلِ الحديث !!

والنصوص في هذا المعنى كثيرة ، أكتفي منها بما سبق.

* * *

(١) ذم الكلام للهروي (رقم ١٠٢٢) .

(٢) انظر الجامع الخطيب (رقم ٧٨٠-٧٨٢) ، والمدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٥٢٠ – ٥٢٢) ، وجامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية – المجموعة الخامسة – (١٩٦- ١٩٧) ، والموقظة للذهبي (٦٥) .

أهمُّ مُـمَيِّزاتِ عِلْمِ الحديثِ وأوضحُ خصائصِهِ

تقدم في (التمهيد) أن لكل علم خصائص ، وأن للعلم بهـذه الخـصائص فائدتين ، ذكرناهما هناك. ويهمنا هنـا إحـدى الفائـدتين ، وهـي: أن العلـم بخصائص علم مـا يوقفنـا عـلى الأسـلوب الـصحيح في تحـصيله ، وعـلى العوائق الحائلة دون بلوغ غايتنا منه ، وعلى وسائل تجاوزها ؛ لأن كل ميـزة لذلك العلم ينبه إدراكها إلى سبيل احتوائها ، في حين أن عدم إدراكها أكـبر عقبة (أو يكاد يكون كذلك) دون فهم ذلك العلم والوصول إلى مرادنا منه.

وقد تنبهت إلى أربع خصائص لعلم الحـديث ، أحـسبها أهـم خصائـصه ، فأحببت لفت نظر طلاب العلم إليها ، ليبتدئوا طلب علم الحديث بالأسلوب والمنهج الصحيح اللائق بهذا العلم ، ولكي لا تتعثر خطاهم ويضيعوا أزمانـاً (لا تقدر بثمن) قبل إدراك ذلك المنهج الصحيح.

وإليك هذه المميزاتِ الأربع ، تحت عناوين أربعة فيما يلي ؛ مُـتْبِعًا كلَّ ميزةٍ منها بالمنهج الذي تستلزمه في الطلب ، وبأسلوب التحصيل الصحيح في مواجهتها ، وما هي وسائل احتوائها ، دون أن تُصْبحَ عقبةً كَأْداءَ في طريقِ علم الحديث .

الميزة الأولى :

من أهم مميزات علم الحديث أنه علمٌ شديدُ المأخذِ ، صعبُ المرتقى، دقيقُ المسالك ، بعيدُ الغور . ولذلك فليس من السهل فهمه ، ولا من اليسير تعلُّمُهُ، ولا يقدر على فقهه كلُّ أحدٍ ، ولا يستطيعه كثيرُ أناسٍ .

ولهذا كان الإمام الزهري (ت١٢٤ هـ) يقول: «الحديث ذَكَرٌ ، يحبه ذكورُ الرجال ، ويكرهه مؤنّثوهم »[(١)].

فشرح ابن قتيبة (ت ٢٧٦ ه) ذلك بقوله في (غريب الحديث) : «أراد الزهري : أن الحديثَ أرفعُ العلوم ، وأجلُّه خطرًا ، كما أن الذكور أفضل من الإناث . فأَلِبَّاءُ الرجال وأهلُ التميُّزِ منهم يحبونه ، وليس كالرأي السخيف الذي يحبّه سُخفاء الرجال ؛ فضرب التذكيرَ والتأنيثَ

(١) انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٦٤) ، وغريب الحديث له (٢/ ٣٠) ، والمحدث الفاصل للرامهرمزي (١٧٩ رقم ٣١ – ٣٢) ، والمجالسة للدينوري (رقم ١٠٥٥) ، والمجروحين لابن حبان (١/ ٦٢) ، والكامل لابن عدي (١/ ٥٨ –٥٩) ، والمدخل إلى الإكليل للحاكم (٢٧) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٦٥) ، وشرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم١٥٠ ، ١٥١) ، وذم الكلام للهروي (رقم ٢٤٢، ٢٤٣) ، ومسألة العلو والنزول لابن طاهر (رقم ٩) ، وترجمة الزهري من تاريخ دمشق – الترجمة المطبوعة المفردة – (١٥٠) .

لذلك مَثَلًا »[١] .

ومعنى هذا أن الحديث يحتاج إلى عقل فحلٍ في عَزْمِهِ وحَزْمِهِ وإصْرَارِهِ وقُوّتِهِ ، ولا ينفع معه العقلُ الضعيفُ المتردِّدُ المتحيِّرُ الملول . وهذا غير الذكاء وسُرعة الفهم ، فلربما كان العقلُ ذكيًّا ، لكنه ليس ذكرًا[٢] !!

ولذلك فقد قلَّ من يَنْجُبُ في علم الحديث ويتميز ، يوم أن كان طالبو الحديث ألوفاً ! ويوم كانت ألوفهم من الطراز الأول من طلبة العلم!!

يقول شعيب بن حرب (ت١٩٧ هـ): «كنا نطلب الحديث أربعة آلاف ، فما أنجب منا إلا أربعة»[٣].

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٠) .

وانظر استشهاداً آخر لعبارة الزهري ، في كلام ظريف ليحيى بن معين ، يبين فيه ما يجب على المحدّث من اليقظة وقوة الانتباه ، إلى أن قال : « أما ذكور الرجال فهم الذين يطلبون الحديث والعلم ، وعرفوا قدره . وأما مؤنثوهم فهم هؤلاء الذين يقولون : أيشٍ نعمل بالحديث ؟! وندع القرآن ؟! أوَما علموا أن السنة تقضي على الكتاب ، أصلحنا الله وإياهم » . انظر : الجامع للخطيب (رقم ١٧٥) ، والطيوريات (رقم ٦٨٥) .

(٢) وهذا العقل (الذكر) – حسب تعبير الزهري – قد يُوجد في الإناث ، كما أن العقل (الأنثى) – حسب هذا التعبير – قد يُوجد في مؤنثي العقول من الرجال .

(٣) الجامع للخطيب (رقم٩٣).

ولما كَثُرَ مَن يطلب الحديث في زمن الأعمش، قيل له: «يا أبا محمد ، ما ترى ؟! ما أكثرهم!! قال: لا تنظروا إلى كثرتهم : ثُلُثُهم يموتون ، وثلثهم يلحقون بالأعمال[١] ، وثُلُثُهم : من كل مائةٍ يُفلح واحدٌ »[٢] .

ومَثَّلَ الإمامُ الزهريُّ لذلك بمثالٍ ، فقال : « مَثَلُ أصحاب الحديث مَثَلُ التّمساح ، يبيضُ مائة بيضة ، تَفْسُدُ تسعةٌ وتسعون ، وتسلم واحدة »[٣] .

ولهذا العمق في علم الحديث نهى نقّادُ الحديث عن شرح كثيرٍ من علل الروايات ؛ إلا عند أهل الحديث ؛ لما يُخشى من شرح ذلك على غير أهل الحديث ، أن يكون سببًا في أن يُفْتَتَنُوا أو يَفْتِنُوا !! من باب : «**حَدّثوا الناس بما يعقلون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»[٤] ، وباب: «**إنك لستَ مُحَدِّثًا قومًا بحديثٍ لا تَبْلُغُهُ عقولُهم ، إلا كان لبعضهم فتنة**»[٥]!!

---

(١) يعني بذلك الوظائف الحكومية ! التي تشغل الموظف بطلب المعاش عن طلب العلم .

(٢) الجامع للخطيب (رقم٩٦) .

(٣) الجواهر والدرر للسخاوي (١/ ٨٦) .

(٤) أثرٌ ثابتٌ عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): أخرجه البخاري (رقم ١٢٧) ، والبيهقي في المدخل إلى السنن (رقم ٦١٠) ، والخطيب في الجامع (رقم ١٣٥٥)، والسمعاني في أدب الإملاء والإستملاء (رقم١٦٧).

(٥) أثرٌ يُروى عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): أخرجه مسلم في مقدمة صحيحة (١/ ١١) ، ومعمر في جامعه – الملحق بمصنف عبدالرزاق- (رقم٢٠٥٥٥) ، والطبراني=

يقول الإمام أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) في (رسالته إلى أهل مكة): «وربما أتوقف عن مثل هذه[١]، لأنه ضررٌ على العامة لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث؛ لأن علم العامة يقصر عن ذلك»[٢].

ويقول الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ): «أشبه الأشياء بعلم الحديث معرفة الصرف ونقد الدنانير والدراهم، فإنه لا تعرف جودة الدينار والدرهم بلون ولا مس، ولا طراوة ولا يبس، ولا نقش، ولا صفة تعود إلى صغر أو كبر، ولا إلى ضيق أو سعة؛ وإنما يعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف البهرج الزائف والخالص والمغشوش. وكذلك تمييز الحديث، فإنه علم يخلقه الله تعالى في القلوب، بعد طول الممارسة له، والاعتناء به»[٣].

= (رقم ٨٨٥٠)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (رقم ٦١١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (رقم ٨٨٨)، والخطيب في الجامع (رقم ١٣٥٨)، والسمعاني في أدب الإملاء (رقم١٦٨)، كلهم من حديث عُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن جد أبيه عبدالله بن مسعود، ولم يدرك زمنَه، لكنه أحد فقهاء المدينة السبعة، وأحد أجل علمائها، مع نقاوة حديث المدينة، ومع كونه حفيداً لابن مسعود = هذا يجعلنا نطمئن لنقله هذا، خاصة مع وقفه وعدم رفعه.

(١) يعني إبراز علل الأحاديث.

(٢) رسالة أبي داود إلى أهل مكة (٣١-٣٢)

(٣) الجامع للخطيب (رقم ١٨٣٥).

وقبلهما .. يقول عبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨هـ) : «معرفةُ الحديث إلهام» ، فعلّق الحافظ الناقد محمد بن عبدالله بن نُمير (ت٢٣٤هـ) على عبارة شيخه بقوله : « وصدق ! لو قلتَ له : من أين قلتَ ؟ لم يكن له جواب »[١] .

ويقول أيضاً : « إنكارنا الحديث عند الجهال كهانة »[٢] .

ولما أنكر ابنُ مهدي حديثًا رواه رجل ، غضب للرجل جماعة ، وقالوا لابن مهدي: « من أين قلتَ هذا في صاحبنا؟!» فلم يبين لهم العلة الحديثية التي جعلتْهُ يُنكر على ذلك الرجلِ حديثَه ، وإنما قال لأحد هؤلاء المنكرين عليه : « أرأيتَ لو أن رجلاً أتى بدينار إلى صيرفي ، فقال: انتقد لي هذا . فقال الصيرفي : هو بهرج[٣] ، يقول له: من أين قلت لي إنه بهرج ؟ (فأجاب ابن مهدي على لسان الصيرفي) : الْزَمْ عملي هذا عشرين سنة ، حتى تعلم منه ما أعلم »[٤] .

ويكفي هذا العلمَ عُمْقًا ! أن يَصِفَ أحدُ أئمته الأواحدِ عِلْمَ شيخِه به

---

(١) علل الحديث لابن أبي حاتم (١/ ٣٨٨) ، و معرفة علوم الحديث للحاكم (١١٣) ، والجامع للخطيب (رقم ١٨٣٧).

(٢) علل الحديث لابن أبي حاتم (١/ ٣٨٩) .

(٣) أي مزيَّف .

(٤) الجامع للخطيب (رقم ١٨٣٨).

بأنه كالسِّحر في اللُّطْفِ والدِّقةِ وخفاءِ المأخذ ، أعني بذلك مقالةَ عليِّ بن المديني (وهو إمام الحديث والعلل) في شيخه عبد الرحمن بن مهدي ، عندما قال عنه : « ما رأيتُ أعلمَ بالحديث من عبد الرحمن ، وما كنتُ أُشبِّهُ عِلمَه إلا بالسِّحر !! »[١] .

ويؤكد أيضاً أحمد بن صالح المصري (ت ٢٤٨هـ) أن علم الحديث لا يفهمه إلا أهله ، عندما قال: «معرفة الحديث بمنزلة معرفة الذهب والشَّبَهِ[٢] ، فإنَّ الجوهرَ إنما يُبصره أهلُه ، وليس للبصير به حجةٌ ، إذا قيل له : كيف قلتَ إن هذا بائنٌ ؟ يعني الجيد والردئ »[٣] .

وبذلك يقرر هؤلاء العلماء وغيرُهم من أئمة السنة أن علم الحديث علم تخصصي ، لا يفهمه إلا من وفَّقه الله تعالى إلى صرف الهمّة كلها له ، ووَقَفَ الجهدَ جميعَه عليه ، وقَصَرَ الحياةَ على تعلُّمِه وتحصيله ؛ وما ذلك إلا لأنه علمٌ مديدُ العمق بعيد الغور ، كما سبق.

ومع ذلك:

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مَجْدٍ تَبَاعُدُهُ ... فإنّ للمجدِ تدريجًا وتدريبا

---

(١) التاريخ للمُقَدَّمي (رقم٩٩٦) .

(٢) الشَّبه هو النحاس الذي يُشبه الذهب في لونه .

(٣) العلل لابن أبي حاتم (١/ ٣٨٩-٣٩٠) ، والجامع للخطيب (رقم ١٨٣٩) .

إن القناةَ التي شاهَدْتَ رِفْعَتَها تسمو فَتَنْبُتُ أُنْبُوبًا فأنبوبا

وقال الآخر :

اصبرْ على مَضَضِ الإدْلاجِ بالسَّحَرِ
وبالرَّوَاحِ على الحاجاتِ والبُكَرِ
لا تَعْجَزَنَّ ولا يُضْجِزْكَ مَطْلَبُها
فالنُّجْحُ يَتْلَفُ بين العَجْزِ والضَّجَرِ
إني رأيتُ (وفي الأيامِ تَجْرِبةٌ)
للصّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يُحاوِلُهُ
واسْتَصْحَبَ الصّبْرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ

ومن رحمة الله تعالى ولُطْفِهِ بعباده أنه قَرَنَ بصعوبة علم الحديث وشدّته لَذَّةً وشهوةً ومتعةً أخّاذةً ، تملك فؤادَ طالبه ، وتجعله ينسى الدنيا بما فيها ، وتتركه بين رياض السنة جذلان هيمان.

إنها (شهوة الحديث) ، تلك الشهوة التي صنعت المستحيلات ، وتضاءلت أمامها كل العقبات !! ولولا هذه الشهوة .. لماتَ علمُ الحديث قبل أن يولد ، ولَتَفَتَّتْ هِمَمُ الرجالِ على سُفوح جباله ، ولساحتِ العزائمُ العِظامُ في صحاريه ، ولغرقت عقول العباقرة في لُجَجِ بحاره .

لقد بلغت هذه الشهوةُ الحديثيةُ إلى درجة أن خاف بعضُ الأئمة على

أنفسهم من أن تتجاوز بهم إلى طرفٍ مذمومٍ من الغلوّ في التعمّق ، إلى حَدِّ التقصير في حقوق الخالق أو المخلوقين أو حق النفس ! فهذا الخطيب يقول متحدّثًا عن شيخه أبي بكر أحمد بن محمد بن أحمد البرقاني (ت٤٢٥هـ) : «سمعتُهُ يومًا يقول لرجلٍ من الفقهاء معروفٍ بالصلاح ، وقد حضر عنده: ادْعُ اللهَ أن ينزعَ شهوةَ الحديثِ من قلبي ، فإنّ حُبَّه قد غلب عليّ ، فليس لي اهتمامٌ بالليل والنهار إلا به»!!![1] .

وحُقَّ للبرقاني أن يقول ذلك ! فهذا يونس بن عبيد (ت١٣٩هـ) يقول : «إن للحديث فتنةً ، فاتقوا فتنة الحديث »[2] ، بل قال سفيان الثوري : «فتنة الحديث أشدّ من فتنة الذهب والفضّة»[3] .

ولا عجبَ أن يقول هؤلاء الأئمة ذلك عن شهوةِ الحديثِ ! فما وجدوه منها يفوقُ وَلَهَ العاشقين (وهو أطهر) ، وقد فعلتْ تلك المحبّةُ الحديثيّةُ بأصحابها من عجائب الأفاعيـــل ، ما قيّدته حقائقُ التاريخ :

- فلئن هام العاشقون على وجوههم في الصَّحَارِيْ ، فلقد كانتِ الصَّحَارَىٰ بعضَ ما قَطَعَهُ المحدّثون في طلب الحديث[4] .

---

(١) تاريخ بغداد (٤/ ٣٧٤) .

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم ، تحقيق أحمد السلوم (١٣٥-١٣٦) .

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم٢٧٧) .

(٤) يقول علي بن المديني : « يحملني حُبّي لهذا الحديث أن أحجّ حجّةً فأسمعَ من محمد بن =

- ولئن تعرّض الوَلِـهُون لِغَيرةِ أهلِ المحبوبة من أجل نَظْرةٍ عابرةٍ منها ، فلقد ركب المحدّثون الأهوالَ وعاشوا مع الأخطار من أجل كتابةِ حديثٍ بإسنادٍ عالٍ كانوا قد كتبوه نازلاً .

- ولئن تَـغرّبَ الـمُدْنَـفُون وراءَ مرابع الأحبـاب ، فلقد هجر المحدثون الأهلَ والأولادَ والأوطانَ إلى غير رجعة .

- ولئن كان (مجنونُ ليلى) وأضرابُه بالعشرات ، فإنّ أهلَ الحديث بعشراتِ الألوف !!!

إنها شهوة الحديث : التي حفظ الله تعالى بها الدين ، وحَـمَى بها السنة !!

وقد قال حفص بن غياث (ت ١٩٤ هـ) : «لولا أن الله جعل الحرصَ في قلوب هؤلاء – يعني طلبةَ العلم – لَدَرَسَ[١] هذا الشأن »[٢] .

ويقول عيسى بن يونس (ت١٨٧هـ) : «كنّا بـأرض الـروم ،أنـا وابـن المبارك [٣]، فربما استحييتُ من خدمة ابن المبارك إياي : يأخذُ بركابي ، فـإذا نزلنا ، قدّمَ لنا الـخَبيص ، فيلقّمني ، ويقعد فيسألني عن الحـديث ، ويكتـب.

= خُنيس» ، الكامل لابن عدي (١/ ١٢١). ومحمد هو محمد بن يزيد بن خُنيس المكي.

(١) أي : عفا وانمحت آثاره وزالت معالمه .

(٢) شرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم١٠٥) .

(٣) للرباط والجهاد في سبيل الله ، فقد كانا (رحمهما الله) صاحبَيْ غزوٍ وجهادٍ ومرابطة.

فأقول : يا شيخ - من صُنْعِهِ وبِرِّهِ لي - لله أبوك ! أما آنَ لك أن تشبعَ ؟! فيقول : ومَنْ يشبعُ من هذا الشأن ؟!! »[١] .

وقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ عن أن هذه الشهوةَ الحديثيّةَ ستُوجَدُ في أُمّته من بعده ، كما في حديث مالك بن عُبادة (رضي الله عنه) ، أن النبي ﷺ قال : « **عليكم بالقرآن ، وإنكم سترجعون إلى قومٍ يشتهون [وفي رواية : يُحبّون] الحديثَ عنّي ، فمن عقل شيئًا فليحدثْ به ، ومنِ افترى عليّ فليتبوأْ مقعدًا من جهنّم** »[٢] .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل (٢٧٨-٢٧٩) .

(٢) حديث حسن : أخرجه الإمام أحمد (رقم١٨٩٤٦) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٠١-٣٠٢) ، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٦٧-٦٨) ، وأبو زرعة الدمشقي في تاريخه (رقم ١٤٦٨) ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٢٦٢٦) ، وابن الضريس في فضائل القرآن (رقم ٥٧) ، والبزار -كما في كشف الأستار- (رقم٢١٦) ، والدولابي في الكنى (رقم٣٣١، ٣٣٢) ، والطحاوي في المشكل (رقم٤١٢) ، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٩٥-٢٩٦) ، والحاكم وصححه (١/ ١١٣) ، وأبو نعيم في مقدمة مستخرجه على مسلم (رقم١٨، ١٩) ، وفي معرفة الصحابة (رقم٦٠١١) ، والخطيب في الجامع (رقم ١٠٤٩ ، ١٠٥٠) ، واختُلف في إسناده ، والصواب أنه من حديث عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمي المصري ، عن وداعة الحَمْدِي ، عن مالك بن عُبادة . وهو إسناد متصل ورجاله معروفون ؛ إلا وداعة الحمْدي ، فقد ترجم له البخاري وابن أبي حاتم دون جرح أو تعديل ، لكن سأل أبوزرعة الدمشقي عنه أحمدَ بنَ صالح المصري: «فذكر أنه رجلٌ معروف، يُكنى أبا =

لقد يسّرت تلك الشهوةُ الصِّعابَ على أهل الحديث ، وجعلتِ اجتهادَهم وكَدَّهم في تحصيله والفحصِ عن خفاياه والغوصِ في أعماقه البعيدة كاللعب واللهو !! لا في يُسره عليهم وسهولته فقط ، بل في لذّته ومُتعته، يقول عبدالرحمن بن مهدي : « ما هو عندي إلا عبثٌ ، كما يعبث الإنسانُ بالكلاب والحَمَام والشيء – يعني الحديث –»[1] .

ولكنّ الشعور بتلك اللذّة يبدأ مع بداية الطلب خفيفًا خفيًّا ، ثم يَقْوَى ويَتّضِحُ تدريجيًّا مع الاستمرار في الطلب ، وكلّما قَوِيَ نظرُ اجتهادِ المجتهِدِ فيه ، وكلّما خاض غمارَ معاركِهِ العلميّة ومحاراته العقلية أُوتي من لذّته أعظمَ من قَدْرِ ما عاناه من كَدِّ ذهنه ومشقّةِ جسده !!

فصعوبة علم الحديث لا تزول بتلك الشهوة ، لكنها بدلَ أن تكون عقبةً تُصبح (مع الصبر على الطلب) عذابا مُستعذبًا ومشقّةً مقصودةً !!

لكنّ صعوبةَ علم الحديث ومشقّةَ طلبِهِ التي لا تلينُ ولا تُسْتَسْمَحُ إلا

= حميد ، روى عن فضالة بن عُبيد» ، وذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ٤٩٦) (٧/ ٥٦٦) ، وانظر توضيح المشتبه لابن ناصر الدين (٢/ ٣٩٥-٣٩٧) .

قلت : هو مع عُلُوِّ طبقته وتقدُّمِ زمنه ، ومع جواب أحمد بن صالح الدال على عدم جهالته ، وعدمِ جرح الأئمة له ، وكونِه لم يرو حديثا منكرًا = أرى أنه يستحقُّ الاعتمادَ عليه .

(١) الكامل لابن عدي (١/ ١١١) .

لِذِي العقلِ الفحلِ والرأيِ الذَّكَرِ (على حَدِّ تعبير الزهري) هي التي قلّلت من أعداد أهله العارفين به ، لقلّة هذا النوعِ المتميز من الناس !

يقول الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ): «أفضلُ المسلمين رجلٌ أحيى سنةً من سننِ رسول الله ﷺ قد أُميتتْ ؛ فاصبروا يا أصحابَ السنن (رحمكم الله) ، فإنكم أقلُّ الناس».

فقال الخطيب عقبه: «قولُ البخاري : إن أصحاب السنن أقل الناس ، عنى به الحفاظَ للحديث ، العالمين بطرقه ، المميزين لصحيحه من سقيمه ، وقد صدق (رحمه الله) في قوله ؛ لأنك إذا اعتبرتَ .. لم تجد بلداً من بلدان الإسلام يخلو من فقيهٍ أو متفقِّهٍ يرجع أهلُ مِصْرِهِ إليه ، ويُعوِّلون في فتاواهم عليه ، وتجد الأمصارَ الكثيرة خاليةً من صاحب حديثٍ عارفٍ به ، مجتهدٍ فيه ، وما ذاك إلا لصعوبة علمه وعزّته ، وقلّة من يَنْجُبُ فيه من سامعيه وكَتَبَتِهِ . وقد كان العلم في وقت البخاري غضًّا طَرِيًّا ، والارتسامُ به محبوباً شهيًّا ، والدواعي إليه أكبر ، والرغبة فيه أكثر ، وقال هذا القول الذي حكيناه عنه!!! فكيف نقول في هذا الزمان ؟!! مع عدم الطالب ، و قلة الراغب!! وكأن الشاعر وَصَفَ قلّةَ المتخصصين من أهل زماننا في قوله :

وقد كنّا نَعُدُّهُمُ قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ من القليلِ »[1]

---

(١) الجامع للخطيب (١/ ١٦٨ رقم ٩١).

وقال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) عند ذكره نُقصانَ علمِ الحديث : «لا شكّ أن نقصَ الاشتغالِ بكلِّ علمٍ قد وقع بكل قُطْرٍ ، لكن حظَّ هذا العلمِ الشريفِ من هذا النقص أزيد ؛ وذلك أن كثيرًا من البلاد الإسلامية قد خلت عمّن يُحقّقه روايةً ، فضلا عن الدراية ، وما ذلك إلا لركونهم إلى التقليد ، وقُصُور هممهم عن محاولة ما يُحَصِّلُ درجةَ الاجتهاد ، ولو في بعضٍ دون بعض »[1] .

فيحق لي أن أقول للحافظ ابن حجر بعد مقالة الخطيب : رحم الله أهل الحديث ! فقد قامت المناحة على أهل الحديث من قرون!!! وما عادوا قليلاً ولا أقل من القليل ، بل هم عدم من دهور ، تكاد – والله – آثارهم تُمْحَي ، وأخبارهم تُنْسَى : ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

لكننا نتنزع من كلمة الخطيب السابقة الروحَ التي قد تبعث موتى أهلِ الحديث، وتنشرهم من القبور؛ إنه التخصصُ الدقيقُ العميقُ في علم الحديث . إذ إن صعوبةَ علمِ الحديث وشدّةَ مأخذِه ، لا يواجهها إلا التخصص ، ولا يجاوزنا عقبتها إلا جمعُ الهمّة كلِّها في تحصيله والتفرغ الكامل له .

وقبل الحديث عن حاجة علم الحديث إلى التخصص فيه ، وأنه علم

---

(١) الجواهر والدرر للسخاوي (١/ ٨٧) .

يستعصي على من قرن به غيرَه ، ولا يقبل له عند طالبه ضَرَّةً ، كالليل والنهار ، وكالدنيا والآخرة ؛ قبل ذلك أتكلم عن أهمية التخصص في جميع العلوم ، وبيان أن التخصص منهجٌ ضروري لا حياة ولا بقاء للعلوم إلا به.

وقد نبّه العلماءُ قديماً على أهمية التخصص في العلوم ، فقال الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ): « إذا أردتَ أن تكون عالمًا ، فاقْصِدْ لِفَنٍّ من العلم ، وإذا أردتَ أن تكون أديبًا فخُذْ من كلِّ شيءٍ أحسنَه »[١].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ): «ما ناظرني رجلٌ قطُّ وكان مُفَنَّنًا في العلوم إلا غلبتُه ، ولا ناظرني رجلٌ ذو فنٍّ واحدٍ إلا غلبني في علمه ذلك»[٢].

بل لقد حذّرَ العلماءُ من طلب احتواء العلوم كلِّها ، حتى قال ابن حزم في ذلك «من طلب الاحتواء على كل علمٍ ، أَوْشَكَ أن ينقطع وينحسر ، ولا يحصل على شيء . وكان كالـمُحْضِرِ[٣] إلى غير غاية ؛ إذ العُمر يَقْصُرُ عن ذلك . وليأخذ من كل علمٍ بنصيب . ومقدارُ ذلك : معرفتُه بأعراض[٤]

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٨٥٠) .

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٨٥٢).

(٣) أي : الـمُسْرِع .

(٤) كذا في المصدر (بأعراض) ، بالعين المهملة ، ويمكن أن تكون الكلمة : بـ(أغـراض) ، بالغين المعجمة .

ذلك العلم فقط . ثم يأخذ مما به ضرورةٌ إلى ما لابُدَّ له منه ، كما وصفنا . ثم يعتمد العلمَ الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته ، فيستكثر منه ما أمكنه. فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر ، على قدر زكاء فهمه ، وقوة طبعه ، وحضور خاطره ، وإكبابه على الطلب»[1] .

إن هذه العباراتِ وأمثالَها من الأئمةِ الدالّةَ على فضل المتخصص في علم واحد على الجامع لأطراف العلوم (أو على رأي الخليل بن أحمد: الدالة على فضل العالم على الأديب المتفنن) جاءت لتؤكّدَ أن كل علم من العلوم بحرٌ من البحور ، لا يعرفه ولا يصل إلى كنوزه وخفاياه إلا من غاص أعماقَه ، وقصر حياتَه على الغوص فيه . أما من اكتفى بالسباحة على ظهر كل بحر من بحور العلم ، فإنه إنما عرف ظواهر تلك البحور ، وما عرف من كنوزها شيئًا .

وأخصُّ بالذكر أهلَ عصرنا ، فإن العلوم قد ازدادت تشعُّبًا ، وعَظُمَ كلُّ علمٍ عما كان ، بمؤلفاتِ أهله فيه على امتدادِ العصور السابقة ، وبزيادة اختلافهم ، وتعارُضِ أدلة كل صاحب قولٍ منهم مع أدلة الآخر[2] ؛ ومع

---

(١) رسالة مراتب العلوم لابن حزم - ضمن مجموع رسائله - (٤/ ٧٧-٧٨) .

(٢) وهذا هو معنى قول القائل :« العلم قطرة ، كثَّرها الجاهلون» ، فليست دراسةُ الدارسين للمسألةِ يومَ كان الحقُّ فيها لا يخرج عن قولين فيها ، هما كلُّ ما قيل فيها من الاختلاف (كزمن التابعين واختلاف الصحابة مثلا) ، كمثل دراسة المسألة نفسها في هذا الزمن ، بعد أن أصبحت أقوالُ الاختلاف فيها عشرةً ، يتردّدُ الحق بينها جميعًا !!! ولا يخفى أن تخليصَ القول الحقِّ من بين عشرة أقوال ، ليس كتخليصه من بين قولين فقط !

ذلك فقد ضَعُفَتْ الهِمَمُ ، ونقصت القُدْرات عما علمناه من أئمتنا السالفين؛ وذلك بيّنٌ واضحٌ لمن عرف سيرهم وأخبارهم ووازن بينهما وبين حالنا ؛ فأولئك كانوا بما تعلّموا وعلّموا وألفوا وجاهدوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر كأن أعمارهم ليست بين الستين والسبعين وإنما بين مائة وستين ومائة وسبعين!! بل (والله) أكثر!!! أولئك كانت حياتُهم كرامةً ، وجُهدُهم معجزةً خارقةً للعادات!!! فأين نحن من أن نحوي علومَهم ؟! وأنّى لنا أن نستوعب علمَ ما خَلَّفُوهُ لنا ؟! ومع ذلك فقد تكلّمَ هؤلاء أنفسُهم عن فضل التخصُّصِ في العلم ، فما أجهلنا إن حسبنا أننا بغير التخصص سنفهم علماً من العلوم!!!

ولقد سبرتُ بعضَ أحوال المتعلِّمين ، فوجدتُ أكثرهم علمًا وإنصافًا وتواضعًا ، وأدقَّهم نظرًا وفهمًا ، وأحسنَهم تأليفًا وإبداعًا : هم أصحاب التخصصات . في حين وجدتُ أقلَّهم علمًا وإنصافًا ، وأكثرَهم كبرًا وتعاليًا وتعالُـمًا ، وأبعدَهم عن الفهم والتدقيق وعن الإبداع والإحسان في التأليف : المتفننين أصحابَ العلوم ، أو سَمِّهم بالمثقفين ؛ إلا من رحم ربك منهم .

ومن فضل صاحب التخصص الفضلَ الظاهر ، الذي يُقِرُّني عليه المنصف ، أن صاحبَ التخصُّصِ لا يُثَرِّبُ على المتفنن ، بل يراه أكثرَ أهليةً منه في أمورٍ : كإلقاء المحاضرات الوعظيّة ، والخُطب الدعوية ، ومواجهة العامة ، ويعدّه بذلك على ثغرة من ثغرات الإسلام ، ويرى أن الأمة في حاجة شديدة إلى

أمثاله . وأما أصحاب الفنون ، فعلى الضد من ذلك ، فهم أكثر الناس تثريبًا وعيبًا على المتخصصين ، ولا يرون لهم فضلاً عليهم في أيّ شيء ، حتى في العلم الذي تخصصوا فيه ، وينازعونهم مسائله (وهم عنها بُعداء) ، ويُشنِّعون عليهم لعدم معرفتهم ببعض ما لم يتخصصوا فيه .

ولك بعد هذا أن تحكمَ ، أيُّ الفريقين أَدْخَلُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢ ، والحجرات : ٩ ، والممتحنة : ٨] .

ولله ما يلاقيه أصحابُ التخصصات من إخوانهم المتفننين!! من عدم فَهْم الأخيرين لتخصصاتهم ، مع كلامهم فيها ومنازعتهم أهلَها وليسو من أهلها ، بل قد يصل الأمرُ إلى استغلال أصحاب الفنون علاقتهم بالعامة والغوغاء ، وانبهارِ هؤلاء بهم ، فيتطاولون على أصحاب التخصصات وعلى علومهم ، بما لا يؤلم العالمَ شيءٌ مثلُه ، وهو الكلام بجهل ، وتشويه العلوم .

ومن فضل صاحب التخصص ، إذا وفّقه الله تعالى ، أنه من أكثر الناس لقَالَةِ : «لا أدري» ، إذا ما سُئل عن غير تخصصه . ولهذه القالةِ بركةٌ لا يعرفها إلا قليل ، فهي بابُ التواضعِ الكبير، وبابٌ للعلمِ أكبر. وأما صاحب الفنون ، فهو عن «لا أدري» أبعد ؛ لأنه قد ضرب في كل علم بسهم ، ويكثُرُ جوابُه على أسئلة العامّة وأنصافِ المتعلمين ، التي هي (في الغالب) سؤالاتٌ عن الواضحات وعن ظواهر العلوم ؛ فينسى مع طول المدّة «لا أدري» ، ولا يعتاد

لسانه عليها ، ولا تنقهر نفسُه لها ؛ لذلك فهو عن بركاتها ليس بقريب !!

ثم إن للعِلْمِ دقائقَ لا يعرف المتفننون عنها شيئًا ، أما المتخصصون فقد خبروها ، وقادتهم إلى دقائقِ الدقائق. فهم فقهاءُ العلوم حقاً ، وأطباء الفنون صدقاً ، وأصحاب التحرير والإصابة ، وأولو التجديد والإبداع .

يقول الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزعفراني تلميذ الشافعي (ت ٢٦٠هـ) : «سمعتُ الشافعيَّ يقول : **مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَلْيُدَقِّقْ ، لكيلا يضيعَ دقيقُ العلم**»[(١)].

كذا نصائحُ الأئمة ، نورٌ على نور!!

وأما الشافعي .. فقد كان آمنًا من ضياع جليل العلم وعُظْمِهِ ، وإنما كان وَجِلاً من ضياع دقيقِهِ وقُلِّه. أما نحن الآن .. فنقول : من تعلم علمًا فليدقق ، لكيلا يضيع جليلُ العلم ؛ فدقِّقوا يا بني إخوتي ما شئتم من التدقيق ، فنحن مع تدقيقكم هذا .. لَعَلَى جليلِ العلم وَجِلُون !!!

وهنا أنبه على أن مطالبتنا بالتخصص لا يعني أن نطالب بذلك على حساب فروض الأعيان من العلوم ، كتصحيح العقيدة وعلم التوحيد الجملي ، وما يُحتاج إليه من فقه العبادات ، وما شابهها من الفروض العينية

---

(١) المدخل إلى السنن للبيهقي (رقم٤١٦) ومناقب الشافعي له (٢/ ١٤٢) ، والأنساب المتفقة لابن طاهر المقدسي (٣) والتمهيد لأبي العلاء الهمَذاني العطار (رقم٤) .

منَ العلوم ؛ فهذا ما لا يجوز على مسلم جهلُه ، فضلاً عن طالب العلم ؛ بل نحن نطالب طالب العلم بما فوق ذلك ، وهو أن لا يكون جاهلاً بنفع كل علم نافع (ولا أقول أن يكونَ عالمًا بكل علم نافع ، فهذا ضدُّ ما أحث عليه) ؛ لأن الجهلَ بنفعِ علمٍ ذي فائدةٍ دنيويّةٍ أو أخرويّةٍ ممّا يدعو إلى معاداة ذلك العلم ، على قاعدة : من جهل شيئًا عاداه ؛ ويَقبُحُ بطالب العلم أن يعادي علمًا نافعًا ، مهما قلَّ نفعُهُ في رأيه ، فإنه لن ينزل عن أن يكون فرضًا على الكفاية .

وما أجمل وصية خالد بن يحيى بن برمك (ت ١٦٥ هـ) لابنه ، عندما قال له: «يا بني ، خُذْ من كل علمٍ بحظٍّ ، فإنك إن لم تفعل .. جهلتَ ، وإن جهلتَ شيئًا من العلم .. عاديتَه ، وعزيزٌ عليَّ أن تُعادي شيئًا من العلم»[1] .

وأخص من العلوم (مما يَقْبُحُ بطالبِ العلم جَهْلُهُ) العلومَ الإسلامية جميعًا ، كعلم الفقه وأصوله والتفسير وأصوله والعقيدة وعلوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، مما ينبغي على طالب علم الحديث المتخصص أن يُحَصِّلَ شيئًا منها. وضابط تحصيله لهذه العلومِ الخارجةِ عن تخصُّصِه (حتى لا يناقض ذلك مطالبتي له بالتخصص) : أن يجعل مقصودَه من طلبه هذه العلومَ تكميلَ فَهْمِهِ للعلم الذي أراد التخصُّصَ فيه وتعميقَه ؛ حيث إن العلوم الإسلامية بينها ترابطٌ كبير ، لا يمكن من أراد التخصص

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٨٥٣).

في علم منها أن يكون جاهلاً تمام الجهل بما سواه . بل ربما قادته مسألةٌ دقيقةٌ في علم الحديث (مثلاً) إلى التدقيق في مسألة من مسائل أصول الفقه أو غيره ، حتى يخرج بنتيجة في مسألته الحديثية. وليس ذلك بغريب على من عرف العلوم الإسلامية ، وقوةَ ما بينها من أواصر القُربى العلمية.

وقد قال ابن حزم في بيان هذه الحقيقة :«من اقتصر على علمٍ واحد لم يُطالع غيرَه ، أوشك أن يكون ضُحْكَةً ، وكان ما خفيَ عليه من عِلْمِه الذي اقتصر عليه أكثرَ مما أدرك ؛ لتعلُّقِ العلوم بعضِها ببعض ، كما ذكرنا ، وأنها دَرَجٌ بعضُها إلى بعض ، كما وصفنا»[1].

ولأَزِيدَ الأمرَ إيضاحًا ، فإني أقول : كيف يتسنَّى لطالب الحديث أن يعرف الصوابَ في إحدى مشاهير مسائله ؟ وهي مسألة الرواية عن أهل البدع وحُكمها ، إذا لم يكن عارفًا بالسنة والبدعة ، وبصنوف البدع وأقسام المبتدعة ، وبحُكم الغُلاة منهم وغيرِ الغُلاة ، ومن هو الذي يُكفَّر ببدعته ممن هو بخلاف ذلك من مُعانِدِي أهلِ البدع ؛ وهذا كله بابٌ من أبواب العقيدة عظيمٌ .

وكيف يمكن لطالب الحديث أن يميزَ بين الروايات المختلفة ، مثل زيادات الثقات: مقبولها ومردودها ، والشاذة منها والمنكرة ، والناسخة والمنسوخة ، والراجحة والمرجوحة ، إذا لم يكن عنده من علم أصول

---

(١) من : رسالة مراتب العلوم لابن حزم - ضمن رسائله - (٤/ ٧٧) .

الفقه ، ومن القدرة على الاستنباط وفَهْمِ النصوص ، ما يتيح له الحكم في ذلك كله ؟!

المهمّ أن لا يأخذَ من العلوم التي لم يتخصص فيها ، إلا بقدر ما يخدمُ العلمَ الذي تخصص فيه ، ولا يزيد على ذلك . وإلا.. لم يصبح متخصصًا ، بل يكون متفننًا .

وطريقةُ تحصيله للعلوم التي لا ينوي التخصُّصَ في واحدٍ منها ، لكي يكون قادرًا على تحرير ما سيُلجئه تخصُّصُهُ إلى تحريره منها ، دون أن يُخرجَه تحصيلُه لها عن حدِّ التخصص إلى حد التفنن هي : أن تكون عنده أصول تلك العلوم الخارجةِ عن تخصُّصِه ، كأن يُتقنَ مختصرًا من مختصراتها، ليُمكِّنَهُ هذا التأصيلُ في تلك الفنون من مراجعة مطوّلاتها والاجتهاد في تحرير بعض مسائلها ، إن أَحْوَجَهُ علمُه الذي تخصَّصَ فيه إلى ذلك ، كما سبق التمثيل له . وعليه أيضًا أن لا يقطع صلته بعلماء تلك العلوم المتخصصين فيها ، وأن يُصوِّبَ فهمَه في علومهم عليهم ، وأن لا يستبدّ بشيء من علمهم دون الرجوع إليهم ، على أن لا يقبل قولاً لأحدٍ بغير دليل صحيح ، وأن يعرف الردَّ على كل دليلٍ للمخالِفين .

وأما التخصُّصُ في علم الحديث ، فقد سبق أنه من أحوج العلوم إلى التخصص فيه ، لشدة عمقه وسعة بحوره وامتداد آفاقه . مع ذلك.. فعندي في مشروعية التخصص فيه (ولو على حساب الفقه!) سنةٌ ثابتة وحديثٌ

صحيح مشهور! وهو قول النبي ﷺ : « **نَضَّرَ اللهُ امرَأً سمع منّا مقالةً فحفظها ، فأدّاها كما سمعها ، فرُبَّ حاملِ فـقهٍ لا فـقهَ له ، ورُبّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه** »[(١)].

و (نـضر) بتخفيـف الـضاد وتـشديدها : مـن النـضارة ، وهـي الحـسن والرونق والبهاء . فالنبي ﷺ يدعو لراوي الحديث بالحسن والبهاء مطلقاً ، في الدنيا والآخرة. وقيل إن المعنى: أبلغه الله تعالى نضارةَ الجنة.

وراوي الحديث الذي دعا له النبي ﷺ بالنضارة : هو راويه باللفظ (على رأي)[(٢)] ، ولو كان لا يفهم كل معاني الحديث: «**ورُبّ حاملِ فقهٍ إلى من هو**

---

(١) حديث صحيح مشهور ، أخرجه أصحاب السنن ، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما. وروي من حديث نحو ثلاثين صحابياً. ولأبي عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن حكيم المديني (ت٣٣٣هـ) جزءٌ حديثي عُنْوِنَ به. وللشيخ عبد المحسن العباد : (دراسة حديث «**نضَّر الله أمرأ سمع مقالتي**» رواية ودراية).

(٢) ويدخل في الحديث أيضًا الراوي بالمعنى ، وإلى هذا ذهب الإمام اللغوي أحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ) في كتابه مأخذ العلم ، حيث علّق على الحديث بقوله : «إنما أراد أن يُبلّغه في صحّة المعنى واستقامة المراد به ، من غير زيادةٍ ولا نُقصان يُغَيِّرانِ المعنى » . مأخذ العلم(٣٨) .

فإن قيل : كيف يرويه بالمعنى وهو لا فقه له ، وأول شرطٍ للرواية بالمعنى أن يكون الراوي فقيها ؛ لكي لا يحرّفَ المعنى ؟ والجواب : أن الراوي غير الفقيه قد يروي الحديث باللفظ عن شيخٍ فقيهٍ كان قد رَوَّاهُ له بالمعنى ، فيدخل من لا فقهَ له في فضل هذا الحديث بذلك . أو أن معنى الحديث كان ظاهرًا جدًّا لا يحتاج إلا إلى فهمٍ ظاهريّ =

أفقه منه» ، ولو كان لا فَهْمَ له في الحديث أبدًا : «رُبّ حامل فقه لا فقه له»!!

وهذا يدل على مشروعية رواية الحديث دون فقه ، بل يدل على استحباب ذلك ؛ ويدل أيضًا على أن راوي الحديث دون علمه بفقهه محمود غير مذموم ، وأنه مستحقٌّ بفعله هذا أن يكون داخلا في دعاءِ النبي ﷺ له .

وقد تعقّبَ الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ) هذا الحديث في كتابه (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) بقوله: «ففرّق النبي ﷺ بين : ناقلِ السنة ، وواعيها ، ودلَّ على فضل الواعي بقوله: « فرُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه غير فقيه » . وبوجوب الفضل لأحدهما يثبت الفضل للآخر[1] ؛ ومثال ذلك أن تمثل بين مالك بن أنس وعبيد الله العمري ، وبين الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي ، وبين أبي ثور وابن أبي شيبة[2] ، فإن

= لإدراكه ، فيمكن حينئذٍ لغير الفقيه أن يرويه بالمعنى ، ليدخل بذلك الراوي غير الفقيه في فضل الحديث أيضًا .

(١) ما أحسن قوله: «وبوجوب الفضل لأحدهما يثبت الفضل للآخر»! فإنك إن ذكرت فضل الفقيه ، قلنا لك: وهل تفقه الفقيه إلا بما رواه له المحدث وميز له صحيحه من سقيمه؟! وإن ذكرتَ فضل المحدث ، قلنا لك : وهل يكون للرواية فائدة إلا بفقهها للعمل بما فيها ؟!

(٢) في هذه الأمثلة الثلاثة ذكر الرامهرمزي في كل مثالٍ منها قرينين ، وتعمّدَ أن يكون أحدهما إمامًا في الفقه والثاني إمامًا في الحديث ؛ فمن ينتقص أحد الإمامين ؟!! أمّن يستطيع ذلك ؟!!!

الحق يقودك إلى أن تقضي لكل واحد منهم بالفضل . وهذا طريق الإنصاف لمن سلكه ، وعَلَمُ الحقِّ لمن أمَّهُ ولم يتعدّه »[١].

وللإمام أبي عبدالله ابن منده (ت٣٩٥هـ) بيانٌ لبعض التخصُّصات في العلوم المتعلِّقة بالقرآن والمتعلقة بالسنة ، وتضمّن هذا البيانُ الثناءَ على كل تخصُّصٍ منها ، وقال في حديثه عن فنون علوم السنة : « وكذلك أفهامُ حملة العلم من السنن والآثار متفرقةٌ ، وإراداتهم متفاوتةٌ ، وهممهم إلى التباين مصروفة ، وطبقاتهم فيما حملوا غيرُ متساوية :

[١] فطائفةٌ منهم: قصدت حِفْظَ الأسانيد من الروايات عن رسول الله ﷺ وأصحابه الذين ندب الله (جل وعز) إلى الاقتداء بهم . فاشتغلت بتصحيح نَقْلِ الناقلين عنهم ، ومعرفةِ المسندِ من المتصل[٢] ، والمرسلِ من المنقطع ، والثابتِ من المعلول ، والعدلِ من المجروح ، والمصيبِ من المخطئ ، والزائدِ من الناقص . فهؤلاء حُفّاظُ العلمِ والدين ، النافون عنه تحريفَ

---

(١) المحدث الفاصل للرامهرمزي (١٦٩ – ١٧٠).

(٢) في تعريف مصطلح (المسند) خلاف ، وهذا القول لابن منده يدل على أن (المسند) عنده متّصل . و(من) في قوله «من المتصل» ليست للتبعيض ، بدليل قوله «والمرسل من المنقطع»، حيث إن المرسلَ منقطعٌ مطلقًا ، وإنما جاءت (من) هنا لبيان الجنس ، كقوله تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة : ١٠٦]، وكقوله تعالى ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر :٢] . وتأتي (من) أيضًا للفصل بين المتضادّين ، كما في الجُمل الآتية « والثابت من المعلول ... » ، وهي كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

غالٍ ، وتدليسَ مدلِّسٍ ، وانتحالَ مُبْطِلٍ ، وتأويلَ جاحدٍ ، ومكيدةَ ملحدٍ . فهم الذين وصفهم الرسولُ ﷺ ، ودعا لهم ، وأمرهم بالإبلاغ عنه .

فهذه الطائفة : هم الذين استحقّوا أن يُقبَل ما جوَّزوه ، وأن يُردَّ ما جرحوه . وإلى قولهم يُرجَعُ عند ادّعاء حرف ، وتدليسِ مدلسٍ ، ومكيدة ملحدٍ . وكذلك إلى قولهم يَرجِعُ أهلُ القرآن في معرفة أسانيد القراءات والتفسير ؛ لمعرفتهم بمن حضر التنزيلَ من الصحابة ، ومَن لحقهم من التابعين وقرأ عليهم وأخذ عنهم ؛ ولعلمهم بصحّة الإسناد الثابت من السقيم ، والراوي العدل من المجروح ، والمتصل من المرسل .

[٢] وطائفةٌ اشتغلت بحفظ اختلاف أقاويل الفقهاء في الحلال والحرام ، واقتصروا على ما ذكرتْ أئمّةُ الأمصار من المتون عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة في كُتُبِهم ، وقصَّروا عما سبقت إليه أهلُ المعرفةِ بالرواياتِ وثابتِ الإسناد وأحوالِ أهلِ النقلِ من الجرح والتعديل ، فهم غيرُ مستغنين عن أهل المعرفة بالآثار عند ذِكْرِ خبرٍ عن النبي ﷺ أو الصحابة أو التابعين لهم بإحسان فيه حُكْمٌ ، ليعرفوا صِحّةَ ذلك من سقمه، وصوابَه من خطئه .

[٣] وطائفة ثالثة : أكثرت الجمعَ والكتابةَ غيرَ متفقِّهين في متن ولا

عارفين بعلّة إسنادٍ، فَـنَـهَمُهُم[١] في الجمع والاستكثار والتدوين. فهم داخلون (إن شاء الله) في قول رسول الله ﷺ: « رحم الله امرأً سمع مقالتي حتى يبلّغها من هو أفقه منه » . وكلٌّ (والحمد لله) على خيرٍ كثير .

. فسبحان من جعل الاختلافَ من العلماء تسهيلاً على خلقه ورحمةً بعباده»[٢] .

ورحم الله السلف ! فقد كانوا أسبقَ إلى كُلِّ خيرٍ وعلمٍ وإنصافٍ ؛ ولهذا لما روى مطر بن طهمان الورّاق (ت ١٢٥هـ تقريبًا) حديثًا ، وسُئل عن معناه ، قال: «لا أدري ! إنما أنا زاملةٌ»[٣] ، فقال له السائل : (وكان عاقلاً مُنْصِفًا) : «جزاك الله خيراً ، فإنّ عليك من كُلٍّ: حُلْوٍ وحامِضٍ»[٤] .

وهذا أَعْدَلُ من قول الشاعر في رواة الشعر ، فاتُّخِذَ مطعنًا بعده في حملة السنن :

زواملُ للأشعارِ لا علمَ عندهم   بجيّدِها ، إلا كعلم الأباعرِ

(١) في المطبوعة (فإنهم) ، وأحسب الصواب ما ذكرتُ .

(٢) شروط الأئمة لابن منده (٢٩-٣١) .

(٣) الزاملة : ما يُحمَل عليه من الدواب كالإبل وغيرها .

قال ذلك على وجه الاعتراف بالتقصير ، معتذرًا عن عدم علمه بالمعنى ، بأنه اكتفى من النفع بحَمْل الخير إلى غيره .

(٤) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ١٩٤٤) ، والجامع لأخلاق الراوي للخطيب (رقم ١٣٧١).

لعَمْرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غَـدَا بأوساقه أو راح مـا في الغرائـرِ[1]

وقد أُجيب بقولٍ أعدلَ من قوله :

زوامـلُ للآثـار يـروون ظـامئًـا إلى العلـم ، ماضَـنُّوا بـما في الغرائـرِ
هُمُ جَـمَعُوها مـن مناجم كَنْزِهـا فلا تَـهْجُـهُمْ إن كنتَ لستَ بشاكرِ
وقـد عَلمـوا أنّ العلـومَ مـنازلٌ وآخرُهـا في الـفـضلِ ليس بـآخـرِ

ولا يعني ذلك الحثَّ المطلقَ على الجمْعِ بغير فقه ، لكنه يعني الرفضَ للذمِّ المطلقِ لمن جَـمَعَ بغير فقه ، فلكل منهجٍ فضائله وعيوبه ! ولا شك أن العلمَ منازلُ بعضُها أشرفُ من بعض ، لكنّ أدنى منازله أشرف (بدرجات ساميةٍ) من أول دَرَكاتِ الجهل !! والذم المطلق لا يستحقّه إلا الجهل المطلق !!!

وانظر إلى إجلال السلف لرواة الحديث ، في العبارة التالية : يقول محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ): «ما كنا ندعو الراوية إلا راويةَ الشِّعر ، وما كنا نقول للذي يروي أحاديثَ الحِكْمَةِ إلا: عالم»[2].

ومما سبق إليه السلفُ من العلم والخير والحق : التنبيهُ إلى أن علم الحديث علمٌ لا يقبل الشِّرْكَـةَ ولا توزيعَ الهمّةِ على غيره معه .

ولذلك قال الإمام عبد الرحمن بن القاسم العُـتَقي صـاحب الإمـام مالك (ت١٩١هـ) : «سمعتُ مالكًـا يقـول : قلّـما اجتمـع في رجـلٍ الفُتيـا

---

(١) مروان بن أبي حفصة (ت١٨٢هـ) وشعره : لقحطان رشيد التميمي (٢٣٧) .

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ١٥٣٣).

والحفظ . (قال ابن القاسم :) يريدُ روايةَ الحديث»[١] . ولذلك كان الإمام مالك يأخذ على تلميذه الكبير عبد الله بن وهب المصري (ت١٩٧هـ) انصرافَه إلى كثرة الرواية على حساب الفقه ؛ لما كان يرى فيه من مخايل النجابة في الفقه ، لو أنه أعطاه حقَّه ؛ لتوافر مواهب الفقه في مَلَكاتِه ، فكان يقول عنه : «سبحان الله ! أيّما فتى ! لولا أنه مكثر»[٢] ، أي : لولا أنه مكثر من رواية الحديث وحِفْظِهِ على حساب التفقّه فيه !

هكذا يقول الإمام مالك هذا القول الحكيم عن ألْصَقِ عِلْمَينِ من العلوم الإسلامية ببعضهما ، وهما علم الفقه وعلم الحديث ، ومع شدّةِ حاجة الفقيه للحديث !

وقد ذكر الربيع بن سليمان المرادي (ت ٢٧٠هـ) أن الإمام الشافعي مرَّ بأحد كبار فقهاء أصحابه ، وهو أبوعلي عبدالعزيز بن عمران بن مِقْلاص الخزاعي المصري (ت٢٣٤هـ)، فقال له : «يا أبا علي ، أتريد أن تحفظ

---

(١) البيان والتحصيل لابن رشد (١٨/ ٥٠٢) . وقد شرحه ابن رشد بقوله : «يريد أن الاشتغال برواية الأحاديث والإكثار منها وبحفظها يشغل عن التفقّه فيما يحتاج إلى التفقّه فيه منها ، وهو ما تقتضيه الأحكام والحلال والحرام ، فقلّما يُوجد من يتحقّقُ بالقيام على الوجهين» .

(٢) تاريخ علماء الأندلس لابن الفَرَضي (١/ ٣٤٤رقم٧٥٥) ، والبيان والتحصيل لابن رُشد (١٨/ ٥٢٣) .

الحديث وتكون فقيهًا ؟! هيهات! ما أبعدك من ذلك !!! »[١].

وقد قدّمَ الخطيبُ هذا الكلام من الشافعي ، وهو يصف الذي يبرع في علم الحديث بقوله: «أن يعاني علمَ الحديث دونما سواه ، لأنه علمٌ لا يعلق إلا بمن وَقَفَ نفسَه عليه ، ولم يَضُمَّ غيره من العلوم إليه »[٢].

ثم أخرج الخطيبُ عقب ذلك العبارتين التاليتين : يقول أبو يوسف القاضي (ت١٨٢هـ): «العلم شيءٌ لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كُلَّك ،

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (١٣٥) ، وحلية الأولياء لأبي نعيم(٩/ ١٣٩)، ومناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٥٢) ، والجامع للخطيب (٢/ ٢٥١ رقم ١٥٦٩).
وقد علّقَ البيهقيُّ على هذا الخبر بقوله : « وإنما أراد به حِفْظَه على رَسْمِ أهل الحديث ، من حفظ الأبواب والمذاكرة بها . وذلك علمٌ كثير، إذا اشتغل به فربما لم يتفرّغ إلى الفقه. فأما الأحاديث التي يحتاج إليها الفقيه ، فلابدّ من حفظها . فعلى الكتاب والسنّة بناءُ أصول الفقه. (ثم أسند البيهقي إلى الإمام إسحاق بن راهويه، أنه قال) : ذاكرتُ الشافعيَّ ، فقال: لو كنتُ أحفظ كما تحفظ لغلبتُ أهلَ الدنيا !! (فتعقَّب البيهقيُّ ذلك بقوله) : وهذا لأن إسحاق الحنظلي كان يحفظه على رَسْمِ أهل الحديث ، ويسرد أبوابه سردًا ، وكان لا يهتدي إلى ما كان يهتدي إليه الشافعي من الاستنباط والفقه . وكان الشافعي يحفظ من الحديث ما كان يحتاج إليه ، وكان لا يستنكف من الرجوع إلى أهله فيما اشتبهَ عليه منه ؛ وذلك لشدّة اتّقائه لله عزّوجلّ ، وخشيتِهِ منه ، واحتياطِه لدينه » . ثم أورد البيهقيُّ عددًا من الأخبار التي تُبيِّنُ أن الشافعي كان يرجع إلى أهل الحديث لسؤالهم عن دقائق علمهم !!!

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٥٦٩).

وأنت إذا أعطيتَه كلَّك من إعطائه البعضَ على غَرَرٍ»[١].

ويقول أبو أحمد نصر بن أحمد بن العباس العِيَاضيُّ الفقيهُ السمرقندي : «لا ينال هذا العلم إلا من عَطَّلَ دُكّانَه ، وخَرَّبَ بستانَه ، وهجر إخوانَه ، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته »[٢].

فإن كانت هاتان العبارتان حقاً في العلوم جميعها ، فهي في علم الحديث أَوْلى أن تُقال وأحق. وهذا هو ما قصده الخطيب ، عندما ساقها في ذلك السياق. وهذا ما صرّح به الإمامُ أبو إسماعيل الهروي (ت٤٨١هـ) عندما قال عن علم الحديث : «هذا الشأنُ شأنُ من ليس له شأنٌ سوى هذا الشأن!!! »[٣].

وللتخصص في كل العلوم معناه ، وفي علم الحديث له معناه الخاص به ؛ فهو تخصص لا يقبل الانقطاع إلى غيره ، مهما طال زمن التفرغ في تحصيله ،

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٥٧٠)، وتاريخ بغداد(١٤/ ٢٤٩) .

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٥٧١).

والمقصود :الحثّ على التفرُّغِ الكامل للعلم ، وترك التَّلَهِّي عنه بما لا يصل إلى درجته من النفع والفضل . ولا يُجوِّزُ ذلك التفريطَ فيما هو أوجب منه (كصلة الرحم والقيام بواجب العباد) ، ولا أن يقود إلى عدم الأخذ بالأسباب في طلب الضروري من المعاش وتحصيل الرزق .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٥٠٦) .

ومهما ظن طالبه أنه تَـمَلَّأَ منه وتَضَلَّعَ . لأنه خبرةٌ دقيقةٌ وحاسة لطيفة ، لا تدوم إلا مع بقاء الالتصاق بالعلم. وسرعان ما تفسد تلك الخبرة ، وتتعطل تلك الحاسة ، إذا انقطع الطالب عن العلم فترة يسيرة.

يقول في بيان ذلـك عبـدالرحمن بـن مهـدي (ت ١٩٨ هـ) : « إنـما مَثَـلُ صاحب الحديث بمنزلة السِّمْسار ، إذا غاب عن السوق خمـسةَ أيـامٍ تغيّـرَ بَـصَرُهُ »[١] . وفي رواية أخرى عنه قال :« مَثَلُ صاحب الحديث مَثَلُ التـاجر إذا احتبس عن سوقه ، لم يمكنه أن يبيع ، حتى يسأل عن السعر »[٢] .

وبلسان أهل عصرنا : إنما حالُ صاحب الحديث حالُ تـاجر العُمْـلات ، لا يستطيع أن يستفيد ويربح ، إلا إذا كان متابعًا لأسـواق العمـلات ، دون انقطاع ؛ فإذا انقطع يومًا واحدًا ، أصبح كالجاهل بهذا السوق تمامًا ، وكأنـه لم يكن به عليمًا في يومٍ من الأيام ! لأنه لا يستطيع أن يشتريَ أو يبيع ، لعـدم علمه باختلاف أسعار العملات الذي يتبدّلُ كلَّ ساعةٍ .

ويؤكّدُ أبو زرعة الرازي حاجةَ علـوم الـسنة إلى دوام التخـصُّصِ فيهـا ، وإلى تميُّزِها بذلك ، فيقول : « إذا مرضتُ شـهرًا أو شـهرين ،تبـيَّنَ عـليّ في حِفْظِ القرآن . وأما الحديث ، فإذا تركتَ أيامًا تبيَّنَ عليك ! نرى قومًـا مـن أصحابنا كتبوا الحديث ، تركوا المجالسةَ منـذ عـشرين سـنة ، أو أقـلّ ، إذا

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٩٠٩).

(٢) الكامل لابن عدي (١/ ١١٢) .

جلسوا اليوم مع الأحداث كأنهم لا يعرفون ، أو لا يُحسنون الحديث . (ثم قال :) الحديث مِثْلُ الشمس ، إذا احْتُبِست عن الشرق خمسةَ أيام ، لا يُعرف السفر . فهذا الشأن يحتاج أن نتعاهده دائمًا »[١] .

وقال الإمام أحمد : « من لم يكتب الحديث [يعني يُكثر منه] ويتعاهده ، كيف يعرف ذا ؟! كيف يضبط ذا ؟! »[٢] .

ولذلك فإن الذي يترك معاهدةَ علمِ الحديثِ بعد أُنْسِهِ به ، ويظنُّ أنه اسْتَغْنَى بما حصَّلَهُ عن استمرارِ البحثِ والتأمُّلِ لمسائله ، فقد أتَى وجهًا من وجوه الاستخفاف وعدم الهيبة لعلم الحديث ، وعاقبةُ ذلك قد حذّرَ منها أهلُ العلم . فيقول أبو عاصم الضحاك بن مخلد النبيل (ت٢١٢هـ) : «من استخفَّ بالحديث ، استخفّ به الحديث »[٣]. وقال الخطيب البغدادي : «وقد حذّرَ الإمامان أحمد بن حنبل وعلي بن المديني الإقدامَ على الحديث؛ خشيةَ الزلل فيه ، على من لم يتهيَّبْهُ (ثم أسند الخطيبُ إليهما قولَهما :) من لم يتهيَّبِ الحديثَ وَقَعَ فيه »[٤] .

ولذلك لم يجعل الإمام أحمد (ت٢٤١هـ) لطلب الحديث زمنًا ينتهي

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٧٩) .

(٢) المتفق والمفترق للخطيب (١/ ١١٥) .

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم ، تحقيق السلوم (١٣٦) .

(٤) المتفق والمفترق للخطيب (١/ ١١٥-١١٧) .

عنده، ولم يُوَقِّت له فترةً يجعلها حدَّه ؛ عندما سُئل: «إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال: حتى يموت »(١).

ولما عيب على الإمام المجاهد عبدالله بن المبارك كثرة طلبه للحديث، قيل له : « إلى متى تسمع الحديث ؟! فقال : إلى الممات »(٢).

وهذا الإمام الزاهد سهل بن عبدالله التُّسْتَري (ت٢٨٣هـ) ، يُقال له: «إلى متى يكتب الرجلُ الحديثَ ؟ فيقول : حتى يموت ، ويُصَبُّ باقي حِبْرِهِ في قبره !! »(٣).

وقال عمر بن هارون : «من لم يجعل عُمُرَهُ كلَّه في طلب الحديث ، لم يكن صاحبَ حديثٍ »(٤).

فإن قيل: قد جاءت عباراتٌ كثيرةٌ في كُتُبِ العلم ، تدلُّ على ذمِّ أحد أمرين : إما على ذمِّ جَمْعِ الحديث وحفْظِه دون فقهٍ ، أو على ذمِّ إفناءِ العُمُرِ في جَمْعِ طُرقِ الأحاديث وتتبُّعِ الأسانيد مطلقًا .

فمن الأول ، قول القائل:

زواملُ للأشعارِ لا علمَ عندهم بجيِّدِها ، إلا كعلم الأباعرِ

---

(١) شرف أصحاب الحديث (رقم ١٤٥).

(٢) الكامل لابن عدي (١/ ١٠٣)، وبنحوه في تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٨٥) .

(٣) ذم الكلام للهروي (رقم١٢٢٥) .

(٤) الجواهر والدرر للسخاوي (١/ ٧٨) .

لعَمْرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غَـدَا بأوسـاقه أو راح مـا في الغرائـرِ

ومن الثاني: قصة حمزة بـن محمـد الكنـاني الحـافظ (ت٣٥٧هـ) ، قـال: «خرّجت حديثاً واحداً عن النبي ﷺ من مائتي طريق ، أو من نحو مـائتي طريق ، فداخلني من ذلك الفرح غير قليل ، وأعجبت بذلك. قال: فرأيت ليلة من الليالي يحيى بن معين في المنام ، فقلت لـه: يـا أبـا زكريـا ، خرجـت حديثاً واحداً عن النبي ﷺ من مائتي طريق ! قال: فسـكت عنّي ساعة ، ثم قال: أخشى أن يـدخـل هذا تـحت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»[1] .

فما هو معنى تلك العبارات ؟ مع ما ندعو إليه من التخصص في علم الحديث .

فأقول: أما ما جاء في ذمِّ من لم يجمع مع الحديث فقهًا ، فلا يُعارَضُ قـولٌ للنبي ﷺ بكلامِ مَنْ كان مِنَ الناس! وقد سبق أن ذكرنا حـديثًا عـن النبـي ﷺ يدل على مشروعيةِ .. بل على استحبابِ ما عابه ذلك العائب.

ثم إن الذي صدر منه ذلك الذم أحدُ رجلين : إمّا أنه من أهل العلم والفضل ، وحينها يُحمل كلامُه على ذمِّ من قَصَّرَ فيما لا يجوز التقصيرُ فيه من العلم بالفروض العينية ونحوها ، مما تقدّم ذِكْرُهُ. وإما أن هذا الذامَّ من أهل الرأيِ وأصحابِ البدع ، الذين يُعادون السنّةَ وأهلها ، ويُـنَـفِّـرُون من علومها ؛ وهؤلاء لا وزنَ لمدحهم وذمِّهم ، بل ربما كان ذمُّهم مرجِّحًا كفّةَ

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ١٩٨٨).

المذمومِ على الممدوحِ منهم!!

وقد سبق نَقْلُ كلام الرامهرمزي وابن منده اللذين أنْصَفا فيه طوائفَ العلماءِ وطلبةِ العلم ، ممن جعله تخصُّصُه في فنٍّ يُقصِّرُ في آخر ، كما هي طبيعة البشر .

وقد قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) :«على أن المنفردَ بفنٍّ من الفنون لا يُعابُ بالزلل في غيره ، وليس على المحدّث عيبٌ أن يزلّ في الإعراب ، ولا على الفقيه أن يزلَّ في الشِّعر . وإنما يجبُ على كل ذي علمٍ أن يُتقنَ فَنَّه ، إذا احتاج الناسُ إليه فيه ، وانعقدت له الرئاسةُ به»[1] .

ومن هذا الباب من الإنصاف : ما ذكره شيخُ الإسلام ابن تيميّة (ت٧٢٨هـ) في سياق كلامه عن اختصاص أهل الحديث بإدراك قرائن الصحّة والوضع في الحديث ، فقال :« والعلمُ بذلك علمٌ مسلَّمٌ لأهله ، لهم فيه طُرُقٌ ومعارفُ يختصّون بها ، كما يختصُّ علماءُ الأحكام بالعلم بطرقها . ولهذا كان أحمد يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه : كان يعرفُ ليحيى بن معين معرفتَه بالفنّ الأوّل ، ويُقدِّمُهُ في معرفة الرجال ، ويُكرمه ويُعظِّمُهُ . وكان يحيى يتكلمُ في الشافعي بكلامٍ ليس بمستقيمٍ ، حتّى إنه أخذ كلامَه في قتال البُغاة ، فجاء به إلى أحمد مُنْكِرًا على الشافعي بعضَ ما فيه من ذِكْرِ قتال

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٨٦) .

البُغاة ، وإدخالَ ذِكْرِ قتالِ عليٍّ وطلحةَ والزبيرِ فيه ، فقال له : وهل يُمكن أن يقول في هذا المقام إلا هذا ؟! وأظنه قال له : لا تتكلّمْ فيما لا تُحسن ، أو نحوه من الكلام الذي فيه إنكارٌ على يحيى ، لأجل إنكارِه على الشافعي في طُرُقِ الأحكام التي كان الشافعيُّ أعلمَ بها منه ، وإن كان يحيى أعلمَ بالرجال من الشافعي .

وكلام يحيى بن معين والبخاري ومسلم وأبي حاتم وأبي زرعة والنسائي وأبي أحمد ابن عدي والدارقطني وأمثالهم في الرجال وصحيح الحديث وضعيفه ، هو مثلُ كلامِ مالكٍ والثوري والأوزاعي والشافعي وأمثالهم في الأحكام ومعرفة الحلال والحرام . وفي الأئمة من هو إمامٌ مع هؤلاء وهؤلاء ، مشاركٌ للطائفتين ، وإن كان بأحد الصّنفين [ألْـحَق] (١) .

وأكثر أئمة [المسلمين](٢) أئمةٌ في الحديث والفقه : كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وأبي عُبيد ، وكذلك الأوزاعي والثوري والليث، وكذلك لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ولأبي حنيفة أيضًا ما له من ذلك .

---

(١) نبّه المحقّقُ إلى وجود خللٍ في هذا الموطن فيما اعتمد عليه من أصلٍ خطّيٍّ، وأحسب أن ما ذكرتُه أو نحوه هوالصواب ؛ لدلالة السياق عليه .

(٢) وقع هنا في المصدر خللٌ يتضح لمن وقف عليه ، وقد اجتهدتُ في تقويمه حسب السياق . وأرجو أن لا يَعتمِدَ على اجتهادي من شكّ فيه ، وأن يُصوِّبَ النصَّ بما يراه هو الأصوب .

ولكن لبعضِهم في الإمامة في الصنفين ما ليس للآخر. فرضي الله عن جميع أهل العلم والإيمان، ونقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠] »[(١)].

وأما ما ورد من عَيْبِ إفناءِ العُمُرِ في تَتَبُّعِ طُرُقِ الأحاديثِ وجَمْعِ الأسانيد، فليس الأمر على إطلاقه.

فهذا يحيى بن معين الذي ذمَّ الإكثارَ من جَمْعِ طرق الحديثِ، فيما تَرَاءا لحمزةَ الكنانيِّ في المنام، يقول هو نفسُه، لكن فيما سُمعَ منه في اليقظة: «لو لم نكتبِ الحديثَ من ثلاثين وجهًا.. ما عَقَلْناهُ »[(٢)].

ويقول الإمام أحمد: « الحديث إذا لم تُجمع طرقُه لم تفهمه، والحديث يفسِّرُ بعضُه بعضًا »[(٣)].

وقال أيضًا: « من لم يجمع علمَ الحديث، وكثرةَ طُرُقِه، واختلافَه، لا يحلُّ له الحُكمُ على الحديث، ولا الفُتْيا به »[(٤)].

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية (١/ ٧١-٧٢).

(٢) التاريخ لابن معين (رقم ٤٣٣٠)، والجامع للخطيب (رقم ١٦٩٩).

(٣) الجامع للخطيب (رقم ١٧٠٠).

(٤) المسوّدة لآل تيميّة (٢/ ٩٢٣) و الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب – تحقيق العثيمين – (١/ ٣٠٤).

وقال علي بن المديني: « الباب إذا لم تُجمع طرقُه ، لم يتبيّنْ خطؤه »[١].

إذن ما هو الأمر المعيبُ في تـتـبُّعِ الطرق وجمع الأسانيد ؟

أجاب عن ذلك الخطيبُ البغدادي في كتبه ، وحَصَرَ سبب عيب ذلك في أمرين :

الأول: جمعُ الأحاديث وقطعُ الأعمار في كتابتها ، صحيحها وضعيفها وموضوعها ، دون تمييز الصحيح بمزيدِ اعتناءٍ ، ولا معرفة الضعيف بعلّته ، ولا التنبيه على المكذوب والباطل ؛ فهو جمعٌ وتصنيفٌ على الإهمال والإغفال ، قد يضر أكثر مما ينفع .

يقول الخطيب في (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) : « ينبغي للمُـنْـتَخِبِ أن يَقْصُدَ تخيُّـرَ الأسانيدِ العالية ، والطُّرُقَ الواضحةَ ، والأحاديثَ الصحيحةَ ، والرواياتِ المستقيمةَ . ولا يُذهِبُ وقتَه في التُّـرَّهات ، من تتبع الأباطيل والموضوعات، وتَـطَلُّبِ الغرائب والمنكرات ... (ثم قال) والغرائب التي كَرِهَ العلماءُ الاشتغالَ بها ، وقَطْعَ الأوقات في طلبها ، إنما هي ما حَكَمَ أهلُ المعرفة ببطلانه ، لكون راويه ممن يضعُ الحديثَ ، أو يدّعي السماعَ. أما ما اسْتُغْرِبَ لتفرُّدِ راويه به ، وهو من أهل الصدق والأمانة ، فذلك يلزم

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٧٠١).

كَـتْبُـهُ ، ويجب سماعُه وحِفْظُهُ »[١] .

وقال الخطيب أيضاً : «ولو لم يكن في الاقتصارِ على سماع الحديث وتخليدِهِ الصحفَ دون التمييز : بمعرفة صحيحة من فاسده ، والوقوف على اختلاف وُجُوهِهِ ، والتصرُّفِ في أنواع علومِه ؛ إلا تلقيبُ المعتزلةِ القدريةِ مَن سلك تلك الطريقةَ بالحشويّةِ لَوَجَبَ على الطالب الأنفةُ لنفسه ، ودَفْعُ ذلك عنه وعن أبناء جِنْسِهِ »[٢].

الثاني: يقول في بيانه الخطيب في (شرف أصحاب الحديث) : « إنما كَرِهَ مالكٌ وابنُ إدريس[٣] وغيرُهما الإكثارَ من طلب الأسانيد الغريبة والطرق المستنكرة ، كأسانيد: حديث الطائر ، وطرق حديث المغفر ، وغُسْل الجمعة ، وقبض العلم ، وإن أهل الدرجات ، ومن كذب عليَّ ، ولا نكاح إلا بولي.. وغير ذلك ، مما يَتَتَبَّعُ أصحابُ الحديث طُرُقَه ، ويُعْنَوْنَ بجمعه ؛ والصحيح من طرقه أقلُّها. وأكثر مَنْ يجمع ذلك : الأحداثُ منهم، فيتحفّظونها ويذاكرون بها . ولعل أحدهم لا يعرف من الصحاح حديثًا ، وتراه يذكر من الطرق الغريبة والأسانيد العجيبة التي أكثرها موضوعٌ وجُلُّها مصنوعٌ ، ما لا يُنتفَعُ به ، وقد أذهبَ من عُمُرِهِ جزءًا في طلبه . وهذه العلة هي التي

---

(١) الجامع للخطيب (١٢٦ – ٢٢٧ رقم ١٥٢٣ ، ١٥٢٨).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٥٩٩).

(٣) يعني الشافعي .

اقتطعت أكثرَ من في عصرنا من طلبة الحديث عن التفقُّهِ فيه ، واستنباطِ ما فيه من الأحكام . وقد فعل متفقهةُ زماننا كفعلهم ، وسلكوا في ذلك سبيلَهم ، ورغبوا عن سماع السنن من المحدثين، وشغلوا أنفسَهم بتصانيف المتكلّمين . فكلا الطائفتين ضيَّعَ ما يعنيه، وأقبل على مالا فائدة فيه[1]»[2].

فبيَّنَ الخطيبُ أن سببَ كراهةِ مالكٍ وغيرِه لتتبع الطرق وجمع الأسانيد من طلبة الحديث ، لا لأنه تتبعٌ وجمعٌ وحسب ، ولكنه جمعٌ لطرق أحاديثَ

---

(١) وهذا ذكّرني بقول البيهقي (ت٤٥٨هـ) في رسالته النفيسة إلى أبي محمد الجُويني (ت٤٣٤هـ)، في سياق ما بَلَغَهُ من أن الجويني بدأ بالعناية بعلم الحديث : « وأرجو من الله تعالى أن يُحْيِيَ به سُنَّةَ إمامِنا المطّلبي [الشافعي] في قَبول الآثار ، حيث أماتها أكثرُ فقهاء الأمصار ، بعد من مضى من الأئمة الكبار ، الذين جمعوا بين نوعَيْ علمِ الفقه والأخبار . ثم لم يَرْضَ بعضُهم بالجهل به ، حتّى رأيتُه حَمَلَ على العالم به بالوقوع فيه ، والضحك منه ! وهو مع هذا يُعَظِّمُ صاحبَ مذهبِه ويُجِلُّهُ ، ويزعُمُ أنه لا يُفارقُ في منصوصاته قَوْلَهُ ، ثم يدعُ في كيفيّة قَبول الحديث طريقتَه ، ولا يسلك فيها سيرتَه ؛ لقِلَّةِ معرفتِه بما عرف ، وكثرة غفلته عما عليه وقف!!

هلّا نظر في كُتُبِهِ ، ثم اعتبر باحتياطه في انتقاده لرواة خَبَرِهِ ، واعتمادِهِ فيمن اشتبهَ عليه حالُهُ على روايةِ غَيره ؟! فيرى سُلوكَ مذهبِه – مع دلالة العقل والسمع – واجبًا على كلِّ من انتصب للفُتيا ؛ فإما أن يجتهد في تعلُّمِهِ ، أو يَسْكُتَ عن الوقوع فيمن يَعْلَمُهُ ، فلا يجتمعُ عليه وِزْران ، حيث فاته الأجران !!! » . رسالة البيهقي إلى أبي محمد الجنوبي ، تحقيق فراس بن خليل (٥٧-٥٨) .

(٢) شرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم ٣٠٤).

صحيحةٍ أصلًا ، وليس هناك أيُّ فائدةٍ زائدةٍ من تتبع أسانيدها الأخرى التي قد يكون أغلبُها ضعيفًا أو باطلاً. ومثال ذلك في عصرنا: ذاك الذي سوَّدَ صفحاتٍ طويلاتٍ في تخريج حديث واحدٍ ، متوسِّعًا غاية التوسع في ذكر مصادر العزو ، من مسانيدَ ومعاجمَ ومشيخاتٍ وأجزاءٍ وتواريخَ ، مع أن الحديث قد صحّحه الشيخان من قَبْلُ ، ولعله وافقهما على تصحيحه أئمةٌ آخرون ، ولا مخالفَ لهم في تصحيحه ؛ فيخرج أخونا هذا ، دون أي فائدة زائدةٍ على ما كان قد بدأ به ، عندما عزا الحديثَ للصحيحين، وهو أن الحديث صحيح!![1]

وهذا كما قال أبو زرعة الرازي : « كتب إليّ أبو ثور : لم يزل الأمر في أصحابك، حتى شغلهم عنه إحصاءُ عدد رواة : (من كذب عليّ) ، فغلبهم هؤلاء القوم عليه »[2] .

ثم إنه لا تتحقق كراهية ذلك الجمع للأسانيد إلا بشرط ، وهو : إذا ما كان الجامعُ لها من أحداث طلبة العلم وصغارهم ، ممن لم يصلوا إلى درجة معرفة قدرٍ جيدٍ من صحيح السنة ، فتنقطع أعمارهم في جمع تلك الأسانيد ،

---

(١) تكلَّمتُ عن هذا المنهج الخطأ في تخريج الأحاديث في مقدمة تحقيقي لأحاديث الشيوخ الثقات لأبي بكر الأنصاري (١/ ٣٤٣-٣٤٤)

(٢) سؤالات البرذعي لأبي زرعة (٢/ ٧٧٤) ، وشرف أصحاب أهل الحديث للخطيب (رقم ٢٦٩) ، وبنحوه في تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٤٤) .

ولعل أحدهم لا يعرف حديثًا صحيحًا (كما يقول الخطيب) ، فذهب عمره فيما لا ينتفع به . فَمِثْلُ هذا .. لا تَـخَصَّصَ في الحديث ، ولا تعلَّم الفقه !! ولذلك عاب عليهم الخطيب انشغالَهم عن الفقه بما هم فيه ، فالفقه (ولو مع نقص في العلم بالحديث) أجلُّ وأشرف بكثيرٍ مما هم فيه.

ولذلك قال علي بن المديني: «إذا رأيت طالب الحديث أوّلَ ما يكتب الحديثَ يجمعُ : حديثَ (الغُسْل) ، وحديثَ (من كذب عليَّ) ؛ فاكتبْ على قفـاه : لا يُفْلِحُ !!» [1].

ونحو هؤلاء في زمننا : طُلّاب الإجازات والسماع والقراءة (الخاليين من فائدة سوى مجرَّد تلقّي المسموع والمقروء) ، المستكثرون من ذلك ، الراحلون فيه[2]، مع نقص علمهم بعلوم السنة ، وغيرها من العلوم . فتذهب أعمارُهم ، ويَعْظُمُ اغترارُهم ، ويلبسون ثياب أهل الحديث ، وهم عريّون من علومهم ، رقيقةٌ آدابهم عن ستر عورات جهلهم ! لنقصٍ في علومهم التي تُهذّب الأخلاقَ وتكسو المسلم بجميل الآداب .

أما إذا كان الجامع لطرق الحديث (ولو كان أصل الحديث صحيحا بأقلِّ

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٩٨٦) ، والطيوريات لابن الطيوري (رقم ٨٠٥) .

(٢) ولا يدخل في هذا التحذير كل مَنْ استجاز أو قرأ أو سمع ، لكنه يخصُّ من بالغَ في ذلك، غافلاً عن أنَّ تلك الإجازات وتلقّي الروايات إنما هو زينة للعلم ، وليس هو العلم ، وقشورٌ حسنة وليس هو اللُّباب .

أقول ذلك مع أني قد نلتُ من تلك الأجايز حظاً لا بأس به ! .

تلك الطرق أو بواحدٍ منها) من الأئمة الكبار في السنة ، الذين هم أولاً أئمةٌ في الاطلاع على صحيح السنة والثابت منها ، وفي تمييز المقبول من المردود ، وهم ثانيًا لم يقطعوا أعمارَهم في جمع تلك الأسانيد ، بدليل إمامتهم واطلاعهم العظيم على السنة ؛ فهؤلاء لو جمعوا أسانيدَ حديثٍ صحيحٍ بأحد تلك الأسانيد ، أي لو قاموا بمثل ما عِبْنَاهُ على الأحداث الصغار في العلم ، لما استحقّوا العيبَ بذلك ، بل نفرح بجهدهم هذا ، ونعتبره من النفائس والأعلاق ؛ وذلك لأن جمعَهم الأسانيدَ لم يكن على حساب كمال علمهم بالسنة ، ولم يشغلهم عما ينتفعون به من الأحاديث الصحيحة وتمييزها عن السقيمة . ولذلك فإن الأحاديث التي مثّل بها الخطيب مما يُعاب على الأحداث جمعُه ، لا يكاد يوجَدُ حديثٌ منها إلا وقد قام بجمع طرقه حفاظٌ كبارٌ وأئمةٌ أعلامٌ ممن يُقتدي بهم.

فحديث الطير جمع طرقه جماعةٌ ، منهم : محمد بن جرير الطبري ، وأبو نعيم الأصبهاني ، والذهبي .

وحديث غسل الجمعة : جمع طرقه الحافظ ابن حجر .

وحديث المِغْفَر : جمع طرقه الحافظ عطية بن سعيد القَفْصِيّ الأندلسي (ت٤٠٨هـ) ، والحافظ ابن بَشْكُوَال (ت٥٧٨هـ) .

وحديث قبض العلم : جمع طرقه الإمام محمد بن أسلم الطوسي (ت٢٤٢هـ) ، والخطيب البغدادي نفسُه ! ونصر بن إبراهيم المقدسي

(ت٤٩٠هـ) .

وحديث (من كذب علي) جمع طرقه الطبراني ، وابن الجوزي .

وحديث (لا نكاح إلا بولي) جمع طرقه شرف الدين الدمياطي .

بل إن الخطيب نفسه ذكر جُلَّ هذه الأحاديث ، في سياق ما يُنصح المحدّثُ بجمعه ، اقتداءً بالمحدثين الذين جمعوا تلك الأحاديث[1] . بل قد جمع الخطيبُ أيضًا طرق حديث قبض العلم ، كما سبق ! مما يقطع بأنه لم يقصد ذمّ جمع طرق تلك الأحاديث مطلقًا .

ومن قَبْلِهِ .. ذكرَ الحاكمُ هذه الأحاديث في كتابه (معرفة علوم الحديث) ، في نوع خاص بها ، ليَذْكُرَ ما اعتنى المحدّثون بجمعه والمذاكرة به[2] .

وخلاصة ما سبق ، فيما يُلام عليه طالب الحديث وما لا يلام عليه من التدقيق في العلم ، هو : أنه يُلام في قضاء العمر في جمع الأباطيل والمناكير ، وعدم تمييزها عن الصحاح المشاهير ؛ وفي تتبع أسانيد حديثٍ صحيحٍ بأحد تلك الطرق ، ولا فائدة في تتبعه للأسانيد الأخرى ، إلا انقضاء الحياة دون معرفة قدر كبير من صحيح السنة وتعلم علوم الحديث.

أما اللوم على التدقيق في العلم مطلقًا ، فهو من أعظم الصوادّ عن العلم

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٩٨٣).

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم (٢٥٠ – ٢٥٤).

مطلقًا!! ومن أكبر الدواعي إلى الجهل !! وإلا فمتى يصل طالب العلم إلى مصافِّ العلماء ؟ إذا لم يُدَقِّقِ التدقيقَ الذي بِحَسَبِ مرتبته من العلم ، والذي هو من باب التَّرَقِّي في التعلم والتدرُّجِ فيه : من فَهْمِ رؤوس المسائل ، إلى فهم فروع المسائل ، إلى التفقه في العلم وأدلته وأصوله ، إلى الاجتهاد فيه والاستنباط . وقد سبقت عبارةُ الإمام الشافعي ، التي يقول فيها: «من تعلَّمَ علمًا فَلْيُدَقِّقْ ، لكيلا يضيعَ دقيقُ العلم» .

وإنما أَطَلْتُ هذه الإطالة في الحث على التخصص ، وفي علم الحديث خاصة ، لكثرة من يعيب ذلك!! وفي هؤلاء العائبين من نحسن بهم الظن ، وغالبهم من إخواننا المتفننين ، كما سبق!!

وأَطَلْتُ هذه الإطالة أيضًا ، لمزيد احتياج علم الحديث إلى التخصص الدقيق حقيقة ، وإلى التعمق فيه ؛ وخاصة في هذه الأعصار ؛ فأين هم نقاده وصيارفته ؟! وأين هم أطباء علله ؟!!

* * *

الميزة الثانية :

أنه علمٌ مع كثرة أجزائه وتَشَعُّبِ أطرافِه ، إلا أنه علمٌ مترابطُ الأجزاء متماسكُ الأطراف مجتمعٌ بقوة . وهو أيضًا عِلمٌ متداخلُ الأصول والقواعد، فتجد كلَّ جزئية منه تنبني وتتصل بأغلب أو بكثير من أصول وفروع العلم كله . وهذه الميزة في الحقيقة هي صورة من صور الميزة الأولى، فهي صورةٌ من صور صعوبة علم الحديث وشدّةِ مأخذه . فهي لذلك تُوَاجَهُ أيضاً بالتخصص ، كما ذكرناه سابقاً.

لكنها تستلزم اتباعَ أسلوبٍ معيّنٍ في التخصص ، وتستوجبُ استخدامَ طريقةٍ خاصة فيْ التعلُّمِ .

فإنّ تَشَعُّبَ أطرافِ العلم وكثرتها ، مع قوة ترابط ما بينها ، وتداخلها بأصول العلم وقواعده ؛ لا يواجههُ الطالبُ ولا يتجاوزُ به هذه العقبةَ ؛ إلا بالاستحضارِ الواسعِ في الذهن لتلك الأطراف والأصول الكثيرة المتشعبة ، وهذا مالا يكون إلا بالحفظ والفهم .

ولأهمية هذا الاستحضار الذهني لمسائل هذا العلم وجزئياته ، حرص علماءُ الحديث على أن ينبهوا إلى أهمية الحفظ وضرورته في علم الحديث ، ووضعوا مناهج للحفظ ، وبينوا الأسباب التي يستعين بها طالب الحديث في الحفظ .

ولذلك تميز المحدثون بالحفظ دون علماء الفنون الأخرى جميعاً ؛ ويقول

الخطيب في التدليل لذلك: «الوصفُ بالحفظ على الإطلاق ينصرف إلى أهل الحديث خاصة، وهو سِمَةٌ لهم لا تتعدّاهم، ولا يُوصف به أحدٌ سواهم؛ لأن الراوي يقول: حدثنا فلان الحافظ، فَيَحْسُنُ منه إطلاقُ ذلك، إذْ كان مُسْتَعْمَلاً عندهم، يُوصَفُ به علماءُ أهل النقل ونقّادُه. ولا يقول القارئ: لقّنني فلانٌ الحافظُ، ولا يقول الفقيه: دَرّسني فلانٌ الحافظ، ولا يقول النحوي: علّمني فلان الحافظ. فهي أعلى صفاتِ المحدثين، وأسمى درجات الناقلين»[(١)].

وحثّ المحدثون على الحفظ، حتى قال عبد الرزاق الصنعاني (ت٢١١هـ): «كلُّ علمٍ لا يدخل مع صاحبه الحمّامَ[(٢)]، فلا تَعُدَّهُ علمًا»[(٣)].

وقال هُشَيْمُ بن بَشيرٍ الواسطيُّ (ت١٨٣هـ): «من لم يحفظ الحديثَ، فليس هو من أصحاب الحديث؛ يجيء أحدهم بكتاب يحمله، كأنه سِجِلُّ المُكاتَبِ[(٤)]!!»[(٥)].

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٥٦٤).

(٢) يعني يكون محفوظاً في الصدر

(٣) الجامع للخطيب (رقم ١٨١٨).

(٤) المُكاتَب: هو العبد المُسترقُّ الذي يجعل سيّدُه عليه مالاً معيّنًا شرطًا لكي يُعتقه، إذا حَضَّره العبدُ للسيّد يكون حُرًّا. فالظاهر أنه كان من شأن هؤلاء المكاتَبين أن يكون معهم كتبٌ كبيرة يُلازِمون حملها، لتقييد ما يجمعونه من الأموال فيها، ولذلك شبَّه المحدثَ الذي لا يحفظ بالمكاتَب؛ لأنه يمشي وفي يده كُتبُه.

(٥) الكامل لابن عدي(١/ ٩٥)، والكفاية للخطيب (٢٦٣).

وأنشد قائلُهم:

ليس بعلمٍ ما حوى القِمَطْرُ ما العلمُ إلا ما حواه الصدرُ

وقال الآخر :

اسْتَوْدَعَ العلمَ قِرْطاسًا فَضَيَّعَهُ

فبئس مستودعُ العلمِ القراطيسُ[1]

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت بعد ١٦٠هـ) ، وهو أجود مما سبق؛ لأنه ثناءٌ على نَتَاج القرائح الثابت في القلوب ، لا على مجرّد الحفظ :

افْخَرْ وكاثِرْ بالقريحةِ إنها فَخْرُ المُكاثِرْ

واعلمْ بأنَّ العلمَ ما أَوْعَيْتَ في صُحُفِ الضمائرْ[2]

فمن الأسباب التي يُستعان بها في حفظ الحديث:

الأول : حُسْنُ النيّة .

فإنها مفتاح كل خير ، وسبب التوفيق والتيسير والبركة في العلم.

---

(١) من اللطيف أن يُورِدَ الثعالبيُّ هذين البيتين في كتابه (تحسين القبيح وتقبيح الحسن) ، ضمن بابٍ بعنوان : تقبيح الكتب والدفاتر (٨١-٨٤) ؛ فكأنّ هذا التقبيحَ المطلقَ تقبيحٌ لما هو حسنٌ في الحقيقة ، في نظر الثعالبي ! وهو بإطلاقه كذلك : تقبيحٌ لحسن !

(٢) شِعر الخليل بن أحمد الفراهيدي ، صنعة: د/ حاتم الضامن (رقم ٢٣) . وقد تعقّب البيتين أبو هلال العسكري في ديوان المعاني(١/ ٣٢٩) . ، بأنه لو قال : « ما ضَمَّنْتَهُ صُحُفَ الضمائر » لكان أجود ، وهو كما قال .

فقد جاء عن عبدالله بن العباس (رضي الله عنهما) أنه قال : « إنما يُحفَظُ حديثُ الرجل على قَدْرِ نيّته »[١]. أي : إنما يُحفَظ في قلبه من النسيان ، ويُؤيد هذا لفظٌ آخرُ للخبر : « إنما يَحفظ الرجل على قدر نيته»[٢] .

وقال معمر بن راشد (ت ١٥٤ هـ): « كان يقال: إن الرجل ليطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم ، حتى يكون لله عز وجل »[٣] .

وقال سفيان الثوري (ت١٦١هـ) : «نَقص[٤] الناسُ في حفظهم ، كما نَقصوا في نيّاتهم »[٥] .

الثاني: اجتناب ارتكاب المحرمات ومواقعة المحظورات:

قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه -: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم ، بالخطيئة يعملها»[٦] .

---

(١) سنن الدارمي (رقم٣٨٧) ، بإسناد يقبل التحسين .

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٨٤٣).

(٣) الجامع لمعمر – بذيل مصنف عبد الرزاق – (١١/ ٢٥٦) ، والمعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٨٢٠) ، والمدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٥١٩).

(٤) (نقص) فعلٌ يكون لازما ومتعديا ، وهو هنا لازمٌ (لا يتعدى إلا بحرف الجر) . ويمكن أن تُقرأ العبارةُ هكذا : « نُقِصَ الناسُ في حفظهم ، كما نُقِصوا في نياتهم » .

(٥) المجالسة للدينوري (رقم٣٦٦) .

(٦) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن (رقم ٤٨٧) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (رقم ١١٩٥)، والخطيب في الجامع (رقم ١٨٥٠)، وانظر تخريجه في المصدرين الأولين.

وقال رجل للإمام مالك: «يا أبا عبد الله ، هل يصلح لهذا الحفظ شيء ؟ قال: إن كان يصلح له شيء ، فترك المعاصي»[١].

وقيل لسفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ) :«بم وجدت الحفظ؟ قال : بترك المعاصي »[٢] .

وقال علي بن خَشْرَمٍ المروزي (ت٢٥٧هـ) : «شكوت إلى وكيع قلة الحفظ ؟ فقال : استعن على الحفظ بقلة الذنوب »[٣] .

وفي الأبيات المشهورة :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وقال اعلمْ بأن العلمَ نورٌ ... ونورُ الله لا يُؤتاهُ عاصي[٤]

الثالث: العمل بالحديث الذي يرويه ويحفظه:

قال سفيان الثوري: «العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل»[٥].

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٨٤٦).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي(رقم ١٦٠٥) .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (رقم١٦٠٤)

(٤) نُسب البيتان إلى الإمام الشافعي ، كما عند القِفْطي في كتابه : المحمدون من الشعراء (١٣٨-١٣٩) ، وهذا خطأ ؛ لأن الشافعي لم يتتلمذ على وكيع بن الجراح ، ولا ذُكر في شيوخ الشافعي من اسمه وكيع . وانظر مصادر البيتين في ديوان الشافعي ، بجمع : د/ مجاهد مصطفى (رقم ٥١)، ستجد أن عامة المصادر لم تنسب البيتين للشافعي ولا لغيره .

(٥) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ١٢٧٤).

وقال جماعةٌ من السلف ، منهم الشعبي ووكيع: « كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به» [١].

ويُروى عن بعض من مضى: «من عمل بعُشر ما يعلم ، علّمَه الله ما يجهل»[٢].

وقال وكيع :« إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به »[٣] .

والسبب الظاهر الذي من أجله كان العملُ بالحديث من أهمِّ ما يُثَبِّتُ حِفْظَه ، أن العمل بالحديث يجعل معانيه الذهنية واقعًا مُدرَكًا بالحسّ، والمُحَسَّاتُ أثبتُ في الذهن من المعنويات . وأهم من ذلك أن العمل بالعلم سببٌ لتوفيق الله تعالى إلى العلم والزيادة منه ، وإلى أن يُؤَيِّدَ من ربِّه بتمييز الحق من الباطل والصواب من الخطأ في العلم وفي عموم شأنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال : ٢٩][٤]. وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد :١٧] .

---

(١) انظر : تاريخ أبي زرعة الدمشقي (رقم٥٨٠) ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ١٢٨٤ ، ١٢٨٦) ، والجامع للخطيب (رقم ١٨٥١ ، ١٨٥٢).

(٢) الجامع للخطيب (رقم٣٥) .

(٣) علوم الحديث لابن الصلاح (٢٤٧) .

(٤) وفي التفسير الإشاريّ الحسن : قولُ الإمام الزاهد سهل التُّستَري في تفسيره (٧١) : «أي نورا في الدين من الشُّبهة بين الحق والباطل» ، وقال القُشيري في تفسيره لطائف الإشارات (١/ ٣٠٨) : «الفرقان : ما يُفرِّقُ به بين الحق والباطل من علمٍ وافر وإلهامٍ باهر » .

الرابع: اختيار الأوقات المناسبة للحفظ في اليوم:

وهذا أمر يختلف فيه الأشخاص، باختلاف أحوالهم وظروف طلبهم للمعاش وغير ذلك من أحوالهم. غير أن الذي يذكره أهل التجربة، هو أن أفضل الأوقات للحفظ: الليل عموماً، والفجر، ويخصون من الليل آخره، وهو وقت السحر، بشرط أن يكون طالبُ العلم قد نام من أول الليل، وأخذ حاجته الكافية من النوم.

وقد قال الخطيبُ في كتابه (الفقيه والمتفقّه): «اعلمْ أن للحفظ ساعاتٍ ينبغي لمن أراد التحفُّظَ أن يُراعيَها، وللحفظ أماكنَ ينبغي للمُتحَفِّظ أن يلزمها. فأجودُ الأوقات: الأسحارُ، ثم بعدها وقتُ انتصاف النهار، وبعدها الغَدَوَاتُ دون العَشِيّات[1]. وحِفظُ الليل أصلح من حفظ النهار. قيل لبعضهم: بمَ أدركتَ العلم؟! قال: بالمصباح، والجلوسِ إلى الصَّباح... (إلى أن قال الخطيب): وقال أبو القاسم السعدي ابنُ عمِّ أبي نصر ابن نُباتة:

أعاذلتي على إتعابِ نفسي ... ورَعْيِي في السُّرى رَوْضَ السُّهادِ
إذا شام[2] الفتى بَرْقَ المعالي ... فأهونُ فائتٍ طِيْبُ الرُّقَادِ»[3]

---

(١) الغُدوة: مابين الفجر إلى طلوع الشمس، والعشيُّ: آخر النهار.

(٢) شام البرقَ: نظر إلى البرق أين يقصد وأين يُمطر.

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب(٢/ ١٠٣-١٠٤). والبيتان نُسبا (كعادة الكذابين) إلى علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه)، كما في أنوار العقول من أشعار وصي الرسول لقطب الدين البيهقي الشيعي (ت٥٧٦هـ) (رقم١٣٥).

ومن جميل الوصايا في ذلك ، ما ذُكر من أن المنذر قال للنعمان ابنه «يا بُنيّ ، أُحِبُّ لك النظرَ في الأدب بالليل، فإن القلب بالنهار طائر، وبالليل ساكن، وكلما أَوْعَيْتَ فيه شيئًا علقه »[(١)].

فتعقَّب الخطيب البغدادي هذه الوصية بقوله «إنما اختاروا المطالعة بالليل لخُلوِّ القلبِ ، فإن خُلُوَّهُ يُسَرِّعُ إليه الحفظَ ، ولهذا (لما) قيل لحماد بن زيد: ما أعون الأشياء على الحفظ ؟ قال : قلَّةُ الغَمِّ[(٢)]. (قال الخطيب) وليست

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٨٧٢).

(٢) من اللطائف ما جاء في الطيوريات لابن الطيوري (رقم١١٥٢) ، من أن حماد بن زيد أجاب سائله عن أعون شيء على الحفظ ، بقوله :« قِلَّةُ الفهم »، بالفاء ثم الهاء ثم الميم . ونبّه محققا الطيوريات إلى هذا الاختلاف بين ما جاء في(الجامع) للخطيب وما جاء في(الطيوريات) ، وذكرا أن ناسخ الطيوريات أكّد على صحة ما كتب، وأنها «الفهم» ، بأن كتب فوقها (صح) ، علامةً على صحتها ، وأنها ليست تصحيفًا من نَسْخه ، ولا رأى الناسخُ في معناها ما يُشكِل ، وإلا لضبَّبَ عليها ، ولما صحَّحَ . فإما أن الخطيب تصحّف النقلُ عليه (منه أومن أحد شيوخه) ، أو أنه تصحّف على ابن الطيوري (كذلك) . ولا شك أن قلة الفهم أعون على الحفظ ؛ ولذلك كان الطفلُ أحفظَ من الرجل ، لأن حفظ الصغير نقشٌ لصورة الكلمات في الذهن (كما سيأتي) ، وحفظُ الكبير يعتمد غالبا على نقش المعاني في الذهن ، فيتصوّر عند تحَفُّظِه أنه قد حفظ الألفاظ ، وهومعتمِدٌ في تثبيتها على الفهم، ولذلك فإنه سُرْعَانَ ما تزول الألفاظ من ذهنه ، وتبقى المعاني فيه ثابتة . فإن أراد الكبيرُ حفظًا كحفظ الصغير ، فإنه يحتاج جُهدًا مُضاعفًا ، وأن يُلغي فَهمَه، فإن لم يستطع إلغاء فهمِه (وهو المتوقَّع) فعليه أن يبالغَ في التكرار (كما يأتي)، =

تكون قلةُ الغم إلا مع خُلُوِّ السرِّ وفراغ القلب ، والليل أقرب الأوقات إلى ذلك»[١] .

وقال إسماعيل بن أبي أويس: «إذا هممت أن تحفظ شيئاً ، فنم ، ثم قم عند السحر ، فأسرج ، وانظر فيه ، فإنك لا تنساه ،[٢] بعد إن شاء الله»[٣] .

وقال الحافظ أبو مسعود أحمد بن الفرات (ت٢٥٨هـ) : «حِفْظُ الليل غالبٌ على حفظِ النهار »[٤] .

الخامس: اغتنام فترة الصِّبا والشباب :

واشتهرت كلمة الحسن البصري التي يقول فيها: «طلب الحديث في الصِّغَرِ كالنقش في الحجر»[٥] ، وزاد بعضُهم ما معناه : والعلم في الكِبَرِ كالنقش في النهر[٦] .

= حتى يُقاربَ حفظَ الصغير .

وما أقلَّ ما أرى تصحيفًا مفيدًا كهذا التصحيف !! وما ألطف ما أفاده من معنى !!!

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٨٧٢).

(٢) يصحّ أن تكون الفاصلة قبل (بعد) ، ويصح أن تكون بعدها .

(٣) الجامع للخطيب (رقم ١٨٧٣).

(٤) الجامع للخطيب (رقم١٨٧٣) ، والطيوريات(رقم٥٥٦) .

(٥) جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٤٨٢) ، والمدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٦٤٠).

(٦) انظر: المدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٦٤١) ، وجامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ٤٨١).

وفي المثل السائر : إنما تقبلُ الطينةُ الختمَ ما دامت رطبةً[١] .

ولذلك كان السلف يُبَكِّرون بأولادهم إلى مجالس الحديث ، حتى قال عبد الله بن داود الخُرَيْبِي (ت ٢١٣هـ) : « ينبغي للرجل أن يُكْرِهَ ولده[٢] على سماع الحديث»[٣].

وقال علقمة بن قيس النخعي (ت٦٢هـ) ، في بيان قوة حافظة الشاب ورسوخ حفظه: «ما حفظت وأنا شاب ، فكأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة»[٤].

السادس: اختيار الأماكن المناسبة للتحفظ:

وصفة المكان المناسب: أن يكون مريحًا ، فلا يشق على النفس أن تمكُثَ فيه . وأن يكون هادئًا ، بعيدًا عن الأصوات المرتفعة والمزعجة . وأن يكون خالياً من الملهيات وما يلفت الأنظار ؛ فلا يجلس في حديقة ، ولا في ممر الناس

---

(١) نصيحة أهل الحديث (رقم ٢) .

(٢) أي يحمله على سماعه ، بكل وسيلة نافعة . وليس المقصود إجباره بالعنف ؛ فإن هذا ما أقل ما يفيد !

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم ١٣٧-١٣٩)، وذم الكلام للهروي (رقم١٠٦٧)، لكنه نسب الكلام إلى عبدالله الواسطي ، لا الخُريبي.

(٤) المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٥٥٤-٥٥٥ ، ٦٣٤) وحلية الأولياء لأبي نُعيم (٢/ ١٠٠-١٠١) ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٤٨٣)، والجامع للخطيب (رقم٦٨٣).

وأسواقهم . بل يختار مقصورة أو حجرة في منزله ، يتحفظ فيها[١] .

وقد قال الخطيب : « وأجود أماكن الحفظ الغُرف دون السُّفْل[٢] ، وكل موضع بعيدٍ مما يُلهي ، وخلا القلبُ فيه مما يُفزعُه فيشغلَه ، أو يغلبُ عليه فيمنعَه . وليس بمحمود أن يتحفظ الرجل بحضرة النبات والخُضرة ، ولا على شُطوط الأنهار ، ولا على قوارع الطريق ، فليس يعدم في هذه المواضع غالبًا ما يمنع من خُلُوِّ القلب وصفاءِ السرِّ »[٣] .

وقال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) : « ولا ريب أن سَفَرَ البصرِ في الجهات والأقطار، ومباشرته للمُبْصَرات على اختلافها، يُوجِبُ تفرُّقَ القلبِ وتشتيتَه؛ ولهذا كان الليلُ أجمعَ للقلب ، والخلوةُ أعونَ على إصابة الفِكْرة »[٤] .

السابع: الجهر بقراءة ما يراد حفظه :

ولذلك حكمة ، بيّنَها والد الزبير بن بكار القرشي (ت ٢٥٦هـ) عندما رأى

---

(١) الحث على حفظ العلم لابن الجوزي (٥٠).

(٢) أي الغُرف التي في الأدوار العُلويّة خيرٌ من السفليّة ، لنقاء هوائها وبُعدها عن أصوات المارة في الطرقات . والغُرف في عُرفهم هي العُلِّيَّة خاصة ، وهي التي تكون فوق سطح المنزل ، وانظر لشرحها : البيان والتبيُّن للجاحظ (١/ ١٩) .
وقد صرَّح أيضاً بهذا الاختيار الجاحظُ ، فاختار لمن أراد الفهم أوالتحفُّظ الغُرف العُلويّة . فانظر : رسائل الجاحظ (٣/ ٣٠) .

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٠٤) .

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٢٥) .

ابنه يتحفظ سرًّا ، فقال له: « إنما لك من روايتك هذه (أي: تحفُّظك سرًّا) ما أدَّى بصرُك إلى قلبك. فإذا أردتَ الرواية (أي: الحفظ) ، فانظر إليها ، واجهر بها ؛ فإنه يكون لك ما أدَّى بصرُك إلى قلبك ، وما أدَّى سمعُك إلى قلبك»[(١)].

«وهذا تعبير رائع صحيح ، وهذا ما يقول فيه علماء التربية وعلم النفس: كلما كَثُرتِ الحواسُّ المشاركةُ في تلقّي موضوعٍ أو تعلُّمِه ، كان حفظُه أسرعَ وأيسرَ»[(٢)].

الثامن : تقليلُ القَدْرِ المحفوظِ يوميًّا ، وعدم تكليف النفس بما تعجز عن إتقان حفظه ؛ فإن ما جاء جُملةً ذهب جُملةً !

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان :٣٢] .

قال أبو أحمد الكَرَجي القصاب (ت ٣٦٠هـ تقريبًا) في كتابه البديع (نُكَتُ القرآن) مُستنبِطًا من هذه الآية : «دليلٌ على مَن دَرْكُه[(٣)] حفْظُ شيءٍ حَفِظَهُ قليلًا ، أو شيئًا بعد شيءٍ ؛ ليرسخَ في قلبه ، ويأمنَ من النسيان»[(٤)] .

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٨٧٤).

(٢) تعليق للدكتور محمد عجاج الخطيب على المصدر السابق.

(٣) في المصدر (أدركه) ، وأحسب الصواب ما أثبتُّه ؛ لأن المعنى : من أراد أن يُدرك حِفْظَ شيءٍ ، فالدَّرْك اسمٌ من الإدراك .

(٤) نكت القرآن للقصاب (٣/ ٥٠٩) .

وقال الإمام عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤١هـ) في تفسيرها: «وجعل الله تعالى السببَ في نزوله متفرّقًا في الزمان: تثبيتَ فؤادِ محمد ﷺ، وليحفظَه»[١].

ولذلك كان الزهري ومعمر يقولان: «من طلب العلم جُملةً، فاته جُملةً؛ وإنما يُدرك العلم حديثٌ وحديثان»[٢].

وقال الزهري أيضاً: «إن هذا العلم إذا أخذتَه بالمكابرة له غَلَبَكَ، ولكن خُذْهُ مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً.. تَظْفَرْ به»[٣].

وقال عبدالله بن وهب المصري (ت١٩٧هـ)، وهو أحد أجلّ الآخذين عن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة: «سمعتُ من ثلاثمائة شيخ وسبعين شيخًا، فما رأيتُ أحفظَ من عَمرو بن الحارث؛ وذلك أنه كان قد جعل على نفسه أن يتحفَّظ كلَّ يومٍ ثلاثة أحاديث»[٤].

ولذلك أخذ علماءُ السلفِ طلابَهم بالتزام هذا المنهج في الإقلال من الدرس اليومي، حتى كان أحدُ علماءِ التابعين، وهو أبو قِلابة عبدالله بن زيد الجرمي (ت١٠٤هـ)، إذا ما حدّثَ طلابَ العلم بثلاثة أحاديث، توقّف عن

---

(١) المُحَرَّر الوجيز (٦/ ٤٣٧).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ٤٥٢-٤٥٣).

(٣) الجامع للخطيب (رقم ٤٥٤).

(٤) الكامل لابن عدي (٤/ ٢٠٣). حتى كان ابن وهب يقول: «لو بقي لنا عمرو بن الحارث، ما احتجنا إلى مالك بن أنس». شيوخ ابن وهب: لابن بَشْكُوَال (٢٠٥).

التحديث ، ويقول : « قد أكثرت »[١] !!.

ويُخبِر معاذُ بن معاذ العنبري (ت١٩٦هـ) عن شيخه التابعي الجليل سليمان التيمي (ت١٤٣هـ) ، قائلا : « كان سليمان إذا أتيناه لا يزيد كلَّ واحدٍ منا على خمسة أحاديث »[٢] .

وقال الثوري : « كنتُ آتي الأعمش ومنصوراً ، فأسمع أربعة أحاديث أو خمسة ، ثم أنصرف ؛ كراهيةَ أن تكثُرَ أو تَفَلّتَ »[٣] .

هذا وهو حافظٌ مطبوع الحفظ ، بل هو مضرب المثل فيه ! .

ونحوه قول شُعبة بن الحجاج : « كنتُ آتي قتادة ، فأسأله عن حديثين ، فيحدّثني ، ثم يقول : أزيدك ؟ فأقول: لا ، حتى أحفظهما وأتقنهما »[٤] .

ويُـخبرنا أيضًا الحافظُ صالح بن محمد (ت٢٩٣هـ) عن شيخه علي بن الجعد (ت٢٣٠هـ) ، قائلًا : « اختلفتُ إلى علي بن الجعد أربع سنين ، وكان لا يقرأ إلا ثلاثةَ أحاديثَ كلَّ يوم »[٥] .

وقال الخطيب البغدادي : « اعلم أن القلب جارحة من الجوارح ، تحتمل

---

(١) الطبقات لابن سعد (٩/ ١٨٤) .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٣) .

(٣) الجامع للخطيب (رقم ٤٥٠) .

(٤) الجامع للخطيب (رقم ٤٥١) .

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٣٩٣) .

أشياء ، وتعجز عن أشياء ، كالجسم الذي يحتمل بعضُ الناس أن يحمل مائتي رطل ، ومنه ما يعجز عن عشرين رطلًا ، وكذلك منهم من يمشي فراسخ في يوم لا يُعجزه ، ومنهم من يمشي بعضَ ميل فيضرّ ذلك به... فكذلك القلب : من الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة ، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام . فإذا ذهب الذي مقدارُ حفظه نصفُ صفحةٍ يرومُ أن يحفظ عشرَ ورقاتٍ (تَشَبُّهًا بغيره) لَحِقَهُ الـمَلَلُ ، وأدركه الضجر ، ونسيَ ما حفظ ، ولم ينتفع بما سمع . فليقتصر كل امرِئٍ من نفسِه على مقدارٍ يبقَى فيه ما لا يستفرِغُ كلَّ نشاطِه ؛ فإن ذلك أعوَنُ له على التعليم من الذهن الجيد والمعلِّم الحاذق ...» ، إلى آخر كلامه النافع في هذا الباب[1] .

التاسع : إحكام الحفظ بكثرة تكراره :

فقد قال القاضي عُبيدالله بن الحسن العنبري (ت١٦٨هـ) : « إن أردتَ أن تحفظَ الحديثَ فأكْثِرْ من لَوْكِ شِدْقَيْكَ[2] به »[3] .

وقال الفقيه العالم أبو الحسن علي بن زياد التونسي (ت١٩٣هـ) : «كان ربيعةُ يُلْقي علينا الأصلَ من الأصول ، فنحفظه ، ويبقى مالكٌ ، فلا يحفظُه إلا

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (٢/ ١٠٧-١٠٩) .

(٢) اللوك : المضغ الهين ، والشِّدْقان : جانبا الخدّ مما يلي الفم . والمعنى : أكثِرْ من تَحْرِيكِ فَمِكَ بتكرار الحديث ، حتى تكون عند من يراك كأنك تمضغُ لُبانًا .

(٣) أخبار القضاة لمحمد بن خلف الشهير بوكيع (٢/ ٩١) .

بعد جُهْدٍ . فما نلبثُ إلا يسيرًا ، حتى ننساهُ . فنرجع إلى مالك ، فَنَسْتَثْبِتُهُ منه »[١] .

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دُكين الكوفي (ت٢١٨هـ) : « لا ينبغي أن يؤخذ الحديثُ إلا عن[٢] ثلاثة : حافظٍ له ، أمينٍ عليه ، عارفٍ بالرجال ، ثم يأخذُ نفسَه بدرْسِهِ وتكراره حتى يستقرَّ له حِفْظُهُ »[٣] .

يقول ابن الجوزي في كتابه (الحثُّ على حِفْظِ العلم) : « الطريق إلى إحكامه كثرةُ الإعادة . والناس يتفاوتون في ذلك ، فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار ، ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير. وكان أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) يعيد الدرس مائة مرة ، وكان إلْكِيَا الهَرَّاسي (٥٠٤هـ) يعيد سبعين مرة . وقال لنا الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه : لا يحصل الحفظ إلي حتى يُعاد خمسين مرة. وحَكَى لنا الحسنُ أن فقيهًا أعاد الدرس في بيته مرارًا كثيرة ، فقالت له عجوز في بيته قد (والله) حفظتُه أنا !! فقال : أعيديه ، فأعادته ؛ فلما كان بعد أيام ، قال: يا عجوز ، أعيدي ذلك

---

(١) إكمال تهذيب الكمال : لمُغُلْطاي (١١/ ٣٢) .

(٢) أي : بعد ثلاثة شروط ، فـ(عن) تأتي بمعنى (بعد) ، كما في قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق : ١٩] .

(٣) مستخرج أبي نُعيم الأصبهاني على صحيح مسلم (رقم٤٣) ، والكفاية للخطيب – تحقيق إبراهيم الدمياطي – (١/ ٤٨٥ رقم٤٩٦) .

الدرس ، فقالت : ما أحفظه ، قال : إني أكرر عند الحفظ لئلا يصيبني ما أصابك»[١].

العاشر: تَعَهُّدُ المحفوظِ ، بإعادة النظر فيه وتكراره ، في أوقات مختلفة :

إذِ الحافظةُ مهما كانت ضابطةً لابد أن يتفلّت عليها بعضُ محفوظها ، فالنسيان جِبِلَّةُ الإنسان ، وأول ناسي أولُ الناسِ . فلا يحافظ على ما في الصدر من العلم ، إلا مراجعته من حين لآخر ، وعدم الاتّكال على الحفظ الأول .

قيل للأصمعي : « كيف حفظتَ ونسي أصحابك ؟! قال : درستُ وتركوا »[٢].

وقال علقمة النخعي: « أطيلوا كَرَّ الحديثِ ، لا يَدْرُسْ[٣] »[٤] .

وقال عبدالرزاق الصنعاني (ت٢١١هـ) : « كان الثوري جعل على نفسه لكل ليلة جزءًا من القرآن ، وجزءًا من الحديث . فيقرأ جزأه من القرآن ، ثم

---

(١) الحث على حفظ العلم لابن الجوزي (٤٨-٤٩).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٨٧٩) ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٦٤١).

(٣) أي: لكي لا يَبْلَى ويُنْسَى.

(٤) أخرجه مسدَّد بن مسرهد – كما في المطالب العالية – (رقم ٣٠٧٨) ، وأحمد في العلل – رواية عبدالله-(رقم١٩٥١)، والخطيب في الجامع (رقم١٨٧٥). وقد جاء في (المطالب) بلفظ: « أطيلوا ذِكْر...» ، وهو تصحيف بلا شك ، إذ كيف يطيل المرءُ ذِكْرَ الحديث لكي لا يدرس ؟!!

يجلس على فراشه ، فيقرأ جزأه من الحديث ، ثم ينام »[١] .

وعلى طالب العلم أن يجعل له جدولاً مُحَدّدًا لمراجعة محفوظة ؛ فمثلاً: يجعل في نهاية كل أسبوع يومًا لمراجعة ما حفظة في ذلك الأسبوع ، وفي نهاية كل شهر يومًا أو يومين لمراجعة محفوظه خلال الشهر كله ، وفي نهاية السنة أسبوعًا أو أسبوعين لمراجعة محفوظه خلال السنة جميعها ... وهكذا.

الحادي عشر : المذاكرة مع الأقران :

والمذاكرةُ اصطلاحٌ يستخدمه المحدثون ، يعنون بها : مطارحاتٍ علميةً ومساجلاتٍ حديثيةً ، يَعْرِضُ فيها الجلساءُ من حفّاظِ الحديثِ وطلبته لِذِكْرِ فوائدِ الأحاديث من غرائب طُرُقِ الحديث وعوالي الأسانيد وخفيّ التعليلات ، يسأل بعضُهم بعضًا عن ذلك ؛ فَيُفيد الواحدُ منهم الآخرَ ما غاب عنه أو يُذكِّرهُ به.

وقد كانت هذه المذاكرةُ من أبرز سِمَاتِ المحدثين في عصوره الأولى (كما كانت الرحلةُ في طلب الحديث من أبرز تلك السِّمات) ، ولها آدابُها وشروطُها المنصوصُ عليها ، ولها فوائدُها ، وفيها أخبارٌ تروي فوائدَ تلك المجالس ، وعنها أقاصيصُ تحكي لطائفَها في التجادُل والتنافُس[٢].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١١٦) .

(٢) انظر: المحدث الفاصل للرامهرمزي (٥٤٥-٥٤٨) ، ومعرفة علوم الحديث للحاكم (١٤٠-١٤٦) ، والجامع للخطيب (٢/ ٤٠٤-٤٢١).

وللمذاكرة مع الأقران وغيرهم – على المعنى السابق – فائدةٌ عظيمة في تثبيت الحفظ ، من جهة أنها تَعَهُّدٌ للمحفوظ بتكراره ومراجعته خلال تلك المجالس ، فيحصل التذكيرُ بالمنسيِّ ، دون إملالٍ أو إضجار ، بل في جوٍّ من النشاط والتنافس العلمي البنّاء.

كما قال التابعي الكبير الجليل مُطَرِّفُ بن عبدالله بن الشِّخِّير (ت٩٥هـ) : «التنازُعُ في العلم مُذاكرةٌ جميلةٌ»[١] . فمع أنه تنازعٌ ، والأصل في التنازع أنه شرٌّ وسُوء ، لكنه في العلم خيرٌ وصلاحٌ ، إذا التزمَ المتنازعون بالأدب العلمي للتنازُعِ ، أي : بأدب الجدال وبحُسن أخلاق الحوار العلمي المنصف . فللفائدة الكبيرة لهذا التنازع ، التي يجدها العلماء فيه ، أصبحت له لذّةٌ ومُتعةٌ لا تساويها لذةٌ أخرى ولا جميعُ مُتع الدنيا سواه ، ويرونَ فيه جمالاً ويُبصرون فيه حُسْنًا لا يرونه في غيره من وسائل التعلُّم ، ولذلك كان عندهم تنازُعًا جميلًا !!

ولأهمية هذه المذاكرة ولعظيم فائدتها أوصى أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه التابعيَّ الثقةَ عبدَ الله بن بُريدة بقوله : «تزاوروا ، وتذاكروا هذا الحديثَ ، فإنكم أن لم تفعلوا يَدْرُسْ علمُكم »[٢] ، أي: يبلى ويَخْلَق.

وقال أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) : « تحدثوا ، فإن الحديث يهيج

---

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (رقم١٤٦٠) .

(٢) مسند الدارمي (رقم٦٥٠) ، وجامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ٦٢٣ ، ٦٨٧) ، وشرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم ٢٠٢-٢٠٣).

الحديث»[١].

وقال جماعة من السلف عبارة أصبحت شعاراً للمذاكرة ، وهي قولهم:«إحياءُ الحديثِ : مذاكرتُه»[٢].

ومن فوائد المذاكرة أيضاً: أنها سببٌ كبيرٌ وداعٍ عظيمٌ للتنافس المحمود بين طلبة العلم. والتنافس في الخير هو الأملُ الجاهدُ لبلوغ الغايات العظام، ولولاه لما سعى للعلياء ماجدٌ ، ولما سما للرفعة طامحٌ.

ولشدة التنافس أثناء المذاكرة بين المحدثين كانت من لذائذ علم الحديث ومن مُتعهِ الجليلة ؛ حتى قال الوزير ابن العميد (ت٣٦٠هـ) : « ما كنتُ أظن أن في الدنيا حلاوة ألذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها ، حتى شاهدتُ مُذاكرةَ سليمان بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي ، (ثم ذكر تلك المذاكرة ، التي ظهر فيها الطبرانيُّ على أبي بكر الجعابي ، ثم قال :) فوددتُ في مكاني أن الوزارةَ والرئاسةَ ليتها لم تكن لي وكنتُ الطبرانيَّ ،

---

(١) مسند الدارمي (رقم٦١٧-٦٢٢) ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم ٦٢٦)، وشرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم ٢٠٧-٢٠٨) ، والجامع للخطيب (رقم ١٨٨٢-١٨٨٣).

(٢) انظر: مسند الدارمي(رقم ٦٢٦-٦٢٧)، وجامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ٦٢٧، ٦٣١ ، ٦٣٩) ، وشرف أصحاب الحديث للخطيب (رقم ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥) ، والجامع للخطيب (رقم ١٨٨٤-١٨٨٥).

وفرحتُ مثلَ الفرح الذي فرح به الطبراني »[١].

وقال علي بن المديني: « ستة كادت تذهب عقولهم عند المذاكرة : يحيى القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ووكيع ، وابن عيينة ، وأبو داود الطيالسي ، وعبد الرزاق ؛ من شدة شهوتهم له. وتذاكر وكيعٌ وعبد الرحمن ليلةً في المسجد الحرام ، فلم يزالا حتى أذّن المؤذنُ أذان الصبح»[٢].

وقال علي بن الحسن بن شقيق (ت٢١٥هـ) : « كنتُ مع عبدالله بن المبارك في المسجد في ليلة شتويّة باردة ، فقمنا لنخرج ، فلما كان عند باب المسجد ، ذاكرني بحديثٍ وذاكرتُه بحديث ، فما زال يذاكرني وأذاكره حتى جاء المؤذّن ، فأذّنَ لصلاة الصبح »[٣] .

وقد قال عبد الله بن المبارك:

ما لذّتي إلا روايةُ مُسْنِدٍ ... قد قُيِّدتْ بفصاحة الألفاظِ

ومجالسٌ فيها عليّ سكينةٌ ... ومُذاكراتُ معاشرِ الحُفّاظِ

نالوا الفضيلةَ والكرامةَ والنُّهَى ... من ربّهم برعايةٍ وحِفَاظِ

لاظُوا بربّ العرش لمّا أيقنوا ... أن الجنانَ لعُصبةٍ لُوَّاظِ

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٩٠٠).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٨٩٩) ، بتصرف يسير.

(٣) الجامع للخطيب (رقم ١٩٠٤) .

ومما يدلُّ على أهمية المذاكرة عند أئمة الحديث : أن الأئمة الذين عُرفوا بعظيم تعبُّدهم وإكثارهم من النوافل كانوا يُقدّمون المذاكرةَ على تلك النوافل ! فهذا عبد الله ابن الإمام أحمد يقول : « لـمَّـا قدم أبو زرعة ، نزل عند أبي ، فكان كثيرَ المذاكرة له . فسمعتُ أبي يومًا يقول : ما صلّيتُ غيرَ الفرضِ ، استأثرتُ بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي »[(١)] .

ومن فوائد المذاكرة أيضاً ومن آدابها: إفادةُ طلبةِ العلـم بعـضَهم بعـضًا ، وفي ذلك استعجالٌ لأجر وثواب التعليم ، قبل بلوغ الدرجة التي يحق فيها لطالب العلم أن يتصدّرَ للتعليم . وما أدرَى طالب العلم ؟ لعله يموت قبل أن يصل إلى أن تتحلّقَ حوله الطلبة !!

يقول عبدالله بن المبارك: «إن أول منفعة الحديث: أن يفيد بعضكم بعضًا»[(٢)].

ويقول الإمام مالك: «بركة الحديث: إفادة بعضهم بعضًا »[(٣)].

ويقول سفيان الثوري: «يا معشر الشباب ، تعجّلـوا بركـةَ هـذا العلـم ، فـإنكم لا تـدرون ، لعلكـم لا تبلغـون مـا تؤملـون منـه ، ليفـد بعـضكم

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١٠/ ٣٢٧) .

(٢) الجامع للخطيب (رقم ٨٨٥).

(٣) المدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ١٤٩٣) ، ولابـن معـين عبـارة نحوهـا في الجـامع للخطيب (رقم ١٤٩٤).

بعضاً»[١].

ومن بركة الإفادة أنها من أعون الأشياء على الحفظ !!

فهذا أحد التابعين وهو إسماعيل بن رجاء : « كان يجمع صِبيان الكُتّاب ، يحدثهم ، يتحفَّظُ بذلك »[٢] .

ويقول إبراهيم النخعي (ت٩٦هـ) : « حدِّثْ حديثَك من يشتهيه ومن لا يشتهيه ، فإنه يصير عندك كأنه إمامٌ تقرؤه »[٣] .

وقال يعقوب بن عبدالرحمن الزهري (ت١٨١هـ) : « بلغني عن ابن شهاب أنه كان يبتغي العلمَ عند عروة بن الزبير ، ومن غيره ، فيأتي الجارية له وهي نائمة ، فيوقظها ، فيقول لها : اسمعي : حدثني فلان بكذا ، فتقول ما لي وما لهذا الحديث ؟! فيقول : قد علمتُ أنك لا تنتفعين به ، ولكني سمعته الآن ، فأردت أن أستذكره »[٤] .

هذه هي أهم وسائل حفظ العلم ، وأظهر أسباب تثبيته وعدم نسيانه.

ولكن مما ينبغي التنبيه عليه هنا ، هو أن للحفظ طريقتين ، لا يعجز عن

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ١٤٩٢).

(٢) مسند الدارمي (رقم٦٢٩) ، والمدخل للبيهقي (رقم٤٣١) .

(٣) مسند الدارمي(رقم٦٣٠) .

(٤) المدخل للبيهقي (رقم٤٣٠) .

واحدة منهما أحدٌ ، فمن أعجزته طريقةٌ منهما قَدِرَ على الأخرى . ولكن لكل طريقة منهما مميزاتها ، كما أن لها عيوبها .

فيحسن أن نذكر طريقتي الحفظ ، بما لهما من محاسن وعيوب :

*** الطريقة الأولى للحفظ (وهي أشهر الطريقتين) :**

وهي أنفع للصغار والشباب ومن أوتي موهبة الحفظ : وهي بأن يُقَـرِّرَ الطالبُ على نفسه لكل يوم جزءًا يسيرًا من العلم ، كأن يكون حديثًا أو حديثين أو أكثر ، ويُستحسن أن يكون قدرًا يسيرًا ، فإن القليل يثبت والكثير لا يحصل[1] ؛ فيتحفّظُ هذا المقرَّرَ يوميًّا ، حتى يُغَـيِّـبَهُ في صدره ؛ ويستمر على ذلك فترةً طويلة ، هي سنواتُ طلبِه للعلم ؛ مع تعهُّدِ المحفوظ دائمًا ، على المنهج الذي ذكرناه سابقًا في التعهُّدِ .

ولهذه الطريقة مميزات وعيوب:

فمن مميزاتها: أنها طريقةٌ منهجية منضبطة ، يمكن للطالب مع التزامها والمداومة عليها حفظُ كتبٍ بِرُمّتها ، وتَغْيِـيْبُ مصنفاتٍ كاملة.

ومن مميزاتها أيضاً: أنها أسرعُ حفظًا من الطريقة التالية ، إذ قد لا يجلس الطالب للتحفظ إلا ربع ساعةٍ أو نصفها . .

ومن عيوبها: أنها أسرع في التفلّت من الطريقة التالية ، وأنها أحـوج مـا تكـون

---

(١) انظر: الحث على حفظ العلم لابن الجوزي (٥٠).

للتعهد للمحفوظ والمراجعة له دائماً، وعدم الانقطاع عنه من فترة لأخرى.

ومن عيوبها: أن الذي يلتزم بها (في الغالب) أضيقُ في الاطلاع من صاحب الطريقة التالية، لأن الطالب معها مقيَّدٌ بمقرَّرٍ معيَّن.

ومن عيوبها: أن الغلوّ فيها، والاقتصار عليها، أو تغليبها على التأمُّل والتفقُّه[1] = يُؤدِّي (مع طول الوقت) إلى ضمورٍ في الفهم، وضعفٍ في

---

(١) ليس معنى التفقُّهِ في هذا السياق: استنباطَ الأحكام الفرعية من أدلتها التفصيلية، الذي هو المشتهر من معنى الفقه في عُرْفِ الشَّرْعِيِّين. ولكني أعني به الفهمَ في العلوم والعُمقَ في إدراك حقائقها، الذي يُمَكِّنُ صاحبَه من الاجتهادِ الصائبِ فيه. فابن معين فقيهُ علمِ الجرح والتعديل، وعلي بن المديني فقيهُ علمِ العلل، وسيبويه فقيه النحو، وعبدالقاهر الجرجاني فقيهٌ في البلاغة، كما أن الشافعي فقيهُ الفقه !!

فإن قيل: هذا يُعارِضُ ما ذكرتَه (سابقًا) من مدح ناقلِ السنة دون فقهٍ؟ فأقول: ما زلتُ لا أعيبُ ذلك، بل هو ممدوحٌ كما قرّرتُه. لكن ناقل السنة دون فقه فيها (كفقه الفقهاء في معانيها) قد يكون فقيهًا في علوم السنة، كالفقه في تمييز صحيحها من ضعيفها، وفي جرح رواتها وتعديلهم، ولا شكَّ أن هؤلاء جميعًا أشرف بمراحل من مجرَّد الناقل. فالخلل يأتي من جهة الإعجاب بالحفظ، إلى درجة تقديم الحافظ مطلقًا على هو من دونه في الحفظ، حتى ولو كان هذا الذي هو أدنى حفظًا من فقهاء ذلك العلم!

ومع أني لا أَذُمُّ ذلك الناقلَ للسنة بغير فقه، وأنى لي أن أذمَّه؟! فلو لم يكن إلا أنه زيادةُ نسخةٍ في البلد لما استحقَّ الذمّ!!! إلا أن مكانته وأثره يومَ كانت السنةُ في زمن الجمع والتدوين خشيةَ الضياع، ليست هي مكانته بعد جمع السنة في المدوَّنات، فأصبح الحفاظُ عليها لا يتمُّ إلا بضبط مدوَّناتها ونشرها والتفقُّه في علومها!!

القُدرة على التحليل والمناقشة والنظر المستقلّ في الأدلة . وهذا يعني أن هذا الحافظَ يكاد يكون مجرّدَ كتابٍ متنقِّلٍ[1] ، وهذا وإن كان ليس ذمًّا مطلقًا، لكنه أيضًا ليس مدحًا مطلقًا ، بل الهِمَمُ ترغبُ فيما هو أعلى من ذلك ، لكنْ كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له !

كما أن على طالب العلم (أو على مُوَجِّهِهِ) إذا ما أحب أن يبلغَ درجةَ الفقهاء في العلوم ، و أن لا يقتصرَ على درجة الناقل : أن لا يجعل غالبَ وقته وعامّةَ جهده مقصورًا على الحفظ ، حتى في زمن الطفولة ، لأن تكوُّنَ المَلَكَات يبدأ من الصِّغر ، وكما قيل : من شبَّ على شيءٍ شابَ عليه . وتعوُّدُ القلب على الحفظ دون الفهم والتأمُّلِ والتحليلِ يُضعف هذه الملكات ، حتى تَضْمُر ، فلا يمكن بعد ذلك (غالبًا) أن تعود إلى نشاطها الفطري ، فضلًا عن أن تبلغ نشاطَها المكتسَبَ الذي كان يمكن أن تصل إليه بالتمرين .

وممَّا يُضاف إلى ذلك ، ممّا يُوجِبُ تقديمَ الفهم على الحفظ فيما يُبْذَلُ

---

(١) وهذا هو المعنى الصحيح لقول من قال عمن حَفِظَ دون حُسنِ فهمٍ وعُمقِ إدراكٍ : «زادت نُسخةٌ في البلد» ! وإلا فما الفرق بين (زوامل للأسفار لا علم عندها) وهو من حمل الكتب ولا يعرف ما فيها ، ومن يُكرِّر ما فيها بغير فهمٍ صحيح ؟

نعم هناك فرقٌ كبيرٌ بين : من لا يعرف شيئًا بتاتًا (وهي الزوامل) ومن يعرف شيئًا لكن يشوبُ معرفتَه نقصٌ كبيرٌ في الفهم ، غير أن هذا الفرق ليس هو الفرقَ الكبيرَ أيضًا الذي بين هذين كليهما وسُمُوٌّ منزلةِ مَنْ أُوتِيَ الفهمَ والفقه !!

له من الوقت والجهد : أن الحفظ أسهلُ من الفهم على الصغير (وهو أسهل أيضًا على الكبير من عُمق الفهم) ، لذلك فصَرْفُ المتعلِّم لوقته من أجل التدرُّبِ على الفهم يجب أن يكون أكبر ، وبَذْلُه للجُهد من أجل تحصيل ملكة التدبُّرِ ينبغي أن يكون أعظم ؛ فضلًا عن شرف الفهم على الحفظ الذي يستحقّ معه مطلقَ التقديم عليه !!

وقد قال الجاحظ في رسالة المعلمين له : « وكرهت الحكماءُ والرؤساءُ ، أصحابُ الاستنباطِ والتفكير : جودةَ الحفظ ، لمكان الاتِّكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا : الحفظُ عِذْقُ الذِّهن . ولأن مستَعمِلَ الحفظ لا يكون إلا مقلِّداً ، والاستنباطُ هو الذي يُفضي بصاحبه إلى بَرْد اليقين وعِزِّ الثقة .

والقضيةُ الصحيحةُ والحُكمُ المحمود : أنه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرفَ منزلة منه[1] . ومتى أهمل النظر لم تُسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل

(١) إن قصد أن الحفظ أشرف مطلقاً ، فهو مخطئٌ ، ويعارضه ما نقله عن الحكماء والرؤساء قبله . وإن قَصَدَ أنه أشرف عند عامة الناس ، بمعنى أنه يرفع أصحابه عند العوام فوق منزلة أهل الفهم ، فهو صواب موافقٌ للواقع..
ولعله يقصد بالحفظ ثبوت المعاني في الفؤاد واستقرارُ الفقه في القلب ، كما يظهر من بقية كلامه . وهذا غير الحفظ الذي نقصده ، والذي هو حفظ الكلمات ونقش الألفاظ في الذهن . فالحفظ بالمعنى الذي ذكره الجاحظ ، هو في الحقيقة العقلُ والإدراك !

الحفظ لم تَعْلَقَ بقلبه ، وقلَّ مُكْثُها في صدره .

وطبيعةُ الحفظ غير طبيعة الاستنباط »[١] .

بل هذا الإمام الشافعي (رحمه الله) يمنع الحافظَ للكتاب والسنن وأقاويل السلف بغير إدراك لحقيقة معانيها من أن يجتهد ، فقال (رحمه الله) : « ومن كان عالماً بما وصفنا بالحفظ[٢] ، لا بحقيقة المعرفة ، فليس له أن يقول أيضاً بقياس ؛ لأنه قد يذهب عليه عَقْلُ المعاني . وكذلك لو كان حافظاً مُقَصِّرَ العقل ، أو مُقَصِّراً عن علم لسان العرب ، لم يكن له أن يقيس ، من قِبَلِ نقص عقله عن الآلة التي يجوز بها القياس . ولا نقول يسعُ هذا (والله أعلم) أن يقول أبداً إلا اتّباعاً ، لا قياساً »[٣] .

وفي تقديم الفهم والفقه على الحفظ عبارات كثيرة لأهل العلم[٤] ، بل

---

(١) رسائل الجاحظ (٣/ ٢٩-٣٠) .

(٢) من الإنصاف وصف الحافظ بالعالم ؛ لأنه حمل العلم .

(٣) الرسالة للشافعي (رقم ١٤٧٧-١٤٧٩).

(٤) وقد قال الحافظُ حمزة السهمي : « سألتُ ابن عبدان عن ابن صاعد : أهو أكثر حديثًا أو الباغَنْدي ؟ فقال : ابنُ صاعد أكثر حديثًا ، ولا يتقدّمه أحدٌ في الدراية ، والباغندي أعلا إسنادًا منه . (وقال حمزة :) سمعتُ أبا بكر ابن عبدان يقول : يحيى بن صاعد يدري ، ثم قال : وسُئل ابن الجَعَابي : أكان ابن صاعدٍ يحفظ ؟ فتبسّمَ وقال : لا يُقال لأبي محمد يحفظ ، كان يدري . (قال حمزة :) قلتُ لأبي بكر ابن عبدان : أيشٍ الفرقُ بين الدراية والحفظ ؟ فقال الدراية فوق الحفظ » ، سؤالات السهمي (رقم٣٧٩).

وقال الإمام أبو زيد الدَّبُوسي (ت٤٣٠هـ) : «ثم الدليل قد يُفْهَمُ وقد يُحفظ ، والحفظ مما تُشارِكُ البهيمةُ الآدميَّ فيه ، فإنها حفظت الأدلةَ الحسيّة من ضروب الأشباه والأعلام ، وهو [أي : حفظ البهيمة] كالصبيِّ الصغيرِ : يحفظ القرآن ولا يفهمه ، والعجميِّ : يحفظ القرآن ولا يفهمه . والحفظ طبيعي للقلب ، والفهم عقليٌّ . وضدُّ الحفظ : النسيان ، وما هو بضدٍّ للفهم . يُقال : فَهِمَ وعَقَلَ : بمعنًى واحد ؛ لأن الفهم لا يكون إلا بدلالة العقل ، فاسْتُعِيرَ لفظُ (العقل) للفظة (الفهم) . وقد يكون العلم بحفظ الأدلة التي هي بصورها حُجّة ، كالنصوص عن صاحب الشرع ، ولا يكون الفقه إلا بالفهم . ولهذا لا يلتذُّ الإنسانُ بعلمه حتى يَفْقَهَ ؛ لأن العلم يقع بسماع النصوص المُوجبة للعلم انقيادًا للشرع ، واستسلامًا ؛ لما عُرِفَ من عصمة الرسول ﷺ عن الكذب ، فكان انقيادًا بخلاف طبعه ، كَرْهًا ، إسلامًا لأمر الله تعالى . فإذا فَهِمَ المعنى ، وصار العلمُ فِقْهًا ، كان عِلمًا على موافقة طبيعة القلب للعاقل ؛ فإن المعقول للعقلاء طبيعيٌّ عقولِهم ، كالمحسوس للبهائم ، فيصير لذيذًا ، لا يُصبَرُ عنه ساعة ، ولا تُقابلُه لذّةٌ يُشارُ إليها من نوع اللذّات ؛ إلا لذّة العمل بالعلم من أنواع العبادات..»: تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع للدبوسي (٣/ ٥٨٨-٥٨٩) .

وقال حاجّي خليفة (مصطفى بن عبد الله أفندي الچلبي التركي ت١٠٦٧هـ) : «الحفظ غيرُ الملكة العِلميّة ، **ومن كانت عنايته بالحفظ أكثر من عنايته إلى تحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرُّفِ في العلم** . ولذلك ترى من حَصَّلَ الحفظَ لا يُحسن شيئا من الفن ، وتجد ملكته قاصرةً في علمه إن فاوَضَ أو ناظَرَ . ومن ظنَّ أنه المقصودُ من الملكة العِلمية فقد أخطأ ، وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوالِّ إلى المدلولات ومن اللازم إلى الملزوم ، وبالعكس . فإن انضمَّ إليها ملكةُ الاستحضار .. فنِعْمَ المطلوب» . كشف الظنون

الأمر لا يحتاج للاستدلال له بالأقاويل ، لأنه معقول المعنى ، لا تختلف فيه الأفهام . ومن يستطيع أن يُقدِّمَ الحفظَ الذي يشترك فيه مع الإنسان : الحيوانُ الذي يحفظ دروبه ومسار هجرته ، والآلةُ الصماءُ (كالحاسوب) التي تحفظ أكثر من حفظ الإنسان = على ما يتميّزُ وينفرد به الإنسان ، وهو الفهم والاستنباط !!!

ولذلك كان يُقال : « قليلٌ من الفهم خيرٌ من كثيرٍ من الحفظ »[١] ،

وقال الحافظُ الكبير أبوعلي النيسابوري (ت٣٤٩هـ) : « الفهمُ عندنا أجلُّ من الحفظ »[٢] .

لحاجي خليفة (١/ ٤٤) .

ونقل صِدِّيق حسن خان القِنَّوْجِي (ت١٣٠٧هـ) ما سبق عن حاجي خليفة ، ثم نقل عن الرازي أنه ذكر تقريرًا عن الحكماء : بـ«أن الحفظ والفهم لا يجتمعان على سبيل الكمال ، لأن الفهم يستدعي مزيد رطوبة في الدماغ ، والحفظ يستدعي مزيد يبوسة ، والجمع بينهما على سبيل التساوي ممتنعٌ في العادة » ، الحِطّة في ذكر الصحاح الستة للقِنَّوْجي (٤٧) .

(١) هذه مقالةُ إمام الحنابلة في زمنه المحب أحمد بن نصر الله البغدادي نزيل مصر (ت٨٤٤هـ) . كما في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي - ترجمة محمد بن محمد بن عبد الرحمن البُلقيني - (٩/ ٩٨) .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي - ترجمة يحيى بن محمد بن صاعد - (٧/ ٣٤٩) .

ولقد قال ﷺ : «**من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقّهه في الدين**»(١) ، ولم يقل: يحفّظه الدين!! وقال ﷺ : «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢)، ولم يقل : إذا حفظوا !!!

بل لقد أمر الله تعالى بتدبّر كتابه في آياتٍ كثيرات ، كقوله سبحانه ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] ، ولم يأمر بحفظه ، ولا في آيةٍ من الآيات(٣)، مع أن كتابَ الله العزيزَ أجلُّ وأكرمُ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) حتى قول الله تعالى ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ، الذي ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنها وصفٌ لعلماء الأمة المحمّديّة ، وأنهم يحفظون كتاب الله تعالى : فأولا : هذا الفهم للآية هو خلاف ما رجّحه إمام المفسّرين ابن جرير الطبري (١٨/ ٤٢٧) ، حيث ذهب إلى أن الضمير (هو) في الآية يعود إلى النبي ﷺ وإلى أن صفته عند أهل الكتاب أنه نبي أُمّي لا يكتب ولا يقرأ ، وأن هذا هو الآيات البينات الدوالُّ على صدق نبوّته ﷺ كما يعلمه علماءُ أهل الكتاب وكما هو مستقِرٌّ من صفته ﷺ في صدورهم . ومع ذلك فإن ابن عطيّة عندما أورد الفهم الأول وغيره في تفسير الآية (المحرَّر الوجيز : ٦/ ٦٥٣)، ختم ذلك بقوله :«يُرادُ به مع النظر والاعتبار» ، يعني إن القرآن لا يكون في الصدور آياتِ بيّناتٍ ، ولا يستحقُّ صاحبُ القرآن وحافظُه الثناءَ عليه بذلك ؛ إلا بعد التفقُّهِ فيه وحُسن التدبّر له . وإلا فإن كون الآيات بيّناتٍ في نفسها ، لا يُوجبُ ذلك الثناءَ =

وأَوْلىٰ ما حُفِظ !! ولا يُفهَمُ من عدم وُرُودِ الأمر بحفظ القرآن الكريم في القرآن الكريم أنّ حِفْظَ كتابِ الله غيرُ مرغوبٍ فيه ؛ فلا يدلُّ عدم الورود على ذلك .. ولا من وجه ، بل إن في الأمر بالتدبُّر حثًّا على الحفظ من جهة أن حفظ القرآن هو أحد وسائل تيسير تدبّره . ولكن جاء تخصيصُ التدبُّرِ بالذكر لأنه الغاية ، وتنبيهًا على أن الفهمَ العميقَ للمعاني هو المقصود الأكبر من إنزال الكتاب ، لكي لا نقعَ فيما وقع فيه أهلُ الكتاب من قبلنا ، الذين كانوا لا يعرفون من الكتاب إلا قراءته ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] .

وقد ذكر النبيُّ ﷺ فَضْلَ من جمع إلى الحفظ فقهاً في مَثَلٍ رائع ، وذلك في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن مَثَلَ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم : كمثل غَيْثٍ أصاب أرضاً : فكانت منها طائفةٌ طيّبةٌ ، قبلتِ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكانت منها أجادب[1] ، أمسكتِ الماء ، فنفع اللهُ بها الناسَ ، فشربوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا. وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان[2] : لا تُمسك ماءً، ولا تُنبتُ كلأً.**

= على من حفظها دون علمٍ بدلائلها البينات ؛ لأنها لم تكن في صدره آياتٍ بيّنات !

(١) الأجادب : الأرض التي لا تُنبتُ العشب .

(٢) القِيعان : الأرض الملساء المستوية التي لا تحفظ الماء ؛ لعدم انخفاضها ، ولا تُنبت الكلأ ؛ لصلابة أرضها وعدم صلاحيتها للإنبات .

فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله ، ونفعه بما بعثني اللهُ به ، فَعَلِمَ وعلَّمَ . ومَثَلُ من لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به»[1] .

ففي هذا الحديث جاء ضَرْبُ المثل للفقيه والحافظ بصنفين من الأرَاضي، فالفقيه : ضَرَبَ له مثلا بالأرض الطيّبة ، التي شربت الماء ، فأنبتت الكلا والعُشب الكثير . وللحافظ ضَرَبَ مثلا بالأرض الأجادب ، التي حَفِظت الماء كما هو ، فلا شربته ، ولا تسرّب منها بغير فائدة ، فنفع اللهُ بالماء غيرَها من الناس ، فشربوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا .

ومعنى هذا : أنَّ (الفقيه) مع كونه قد لا يبلغ في أداءِ المحفوظ أداءَ الحافظ له ؛ لأنه كالأرض التي لم تحفظ الماء ، بل شربته = إلا أن هذا الحديثَ النبويَّ الشريفَ قد قدّمَه على الحافظ تقديمًا بائنًا ، كما هو ظاهر من هذا المثل الرائع[2]:

- حيث قدّمَ الفقيهَ على الحافظ في الذِّكر والسياق ، والتقديم في الذِّكْرِ في مثل هذا السياق يدلُّ على التقدُّمِ في شرف المنزلة .
- وَوَصَفَ الأرضَ المضروبةَ للفقيه مثلا بالأرض الطيّبة ، مع ما في هذا الوصف من الثناء الطيّب .
- وَوَصَفَ عَمَلَه وَصْفًا شريفًا يقتضي التقديمَ البالغ ، وهو أنه انتفع في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٩) ، ومسلم رقم (٢٢٨٢) .

(٢) انظر ذكر ابن تيمية لهذا المعنى في مجموع الفتاوى (٤/ ٩٣-٩٤) .

نفسِه بالعلم أوّلا ، ثم نَفَعَ الناسَ به ثانيًا ، و بما يعجز عنه الناس ثالثًا: وهو استنباط الفوائد والحِكَم والأحكام .

وأما حال الحافظ (حسب هذا المثَل) فبخلاف الفقيه في ذلك كلّه من وجوه التقديم .

وهذا يدل على تقديم الفِقْهِ على الحفظ ، وأن الفقيه وإن كان لا يحفظ كالحافظ ، فهو خيرٌ منه وأفضل .

وكيف لا يُقَدَّم الفَهْمُ ، وهو سبيلُ العَمَلِ بالعلم ، وسببُ الاستفادة منه؟!

كما قد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : « كونوا للعلم وُعَاةً ؛ فإنه قد يَرْعَوِي ولا يروي ، وقد يروي ولا يرعوي »[1] . أي : قد يتّعظُ ويَنْزَجرُ من لا يحفظ ، إذا ما وَعَىٰ العِلْمَ وفَقُهَ فيه . وأما مَن حَفِظَ وروى بغير فَهْمٍ ، فإنه لن يتّعظ ولن ينزجر !

وكيف لا يُقدَّم الفهمُ على الحفظ ، ومع كثرة من يحفظون قلَّ في الناس

---

(١) أخرجه أبونعيم في الحلية (٧/ ٢٦٢) بإسناد حسن . وصوَّبه من الجامع لابن عبدالبر (١/ ٦٩٨ رقم ١٢٣٨) .

ويبدو أن هذا الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هو الذي اقتبس منه الإمامُ الرامهرمزي عنوانَ كتابِه الجليل : (المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي) ، والذي هو أوّلُ كتابٍ جامعٍ مفردٍ يصل إلينا في علوم الحديث .

من يفهمون . والشيء يعلو بِقَدْرِ أهميّته والحاجة إليه ، فإذا كان مع ذلك نادرَ الوجود ، كان ذلك أسمى له في المنزلة . وكلا الأمرين (من الأهميّة والنُّدْرة) للفهم فيهما أوفر الحظ ، وللحفظ منهما أوكسُ نصيبٍ . وقد قال ابن الجوزي : «أقلُّ موجودٍ في الناس : الفهمُ والغوصُ على دقائق المعاني»[١] .

وما مثلُنا في هذا الزمان إلا كما قال العلّامةُ ابن شُهَيدٍ الأندلسي (ت٤٢٦هـ) واصفًا بوارَ الفهم والعلم والأدب في زمنه ، لصالح الحفظ ونحوه من آلةِ الوُعّاظ[٢] : «لا كقومٍ عندنا، حظُّهم من الفهم الحفظُ، ومن العِلْمِ الذِّكرُ[٣] ، وهذا حظُّ القُصّاص ، وأعلى منازلِ النُّوّاح . فترى المُمَخْرِقَ منهم إذا قُرئ عليه الشعرُ يزوي أَنْفَه ، ويكسرُ طَرْفَه . وإذا

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (٤٠٣ الخاطرة التي برقم٣٦٤) .

(٢) أعود مؤكّدًا أن الواعظ الموفَّقَ من سادة الأمة ، ومن أطباء قلوبها .فهم من موقظي الفطرة ، وهم بوّابةُ المذنبين إلى التوبة ، ومن سُوّاقُ الناس إلى رحمة الله تعالى . لكنّ العلمَ والفقهَ فيه والتحريرَ لمسائله شيءٌ آخر ، ولن يكون الواعظُ موفَّقًا إلا أن يقتبس من أولئك العلماء الراسخين ، فالعلماء هم الأئمة .. والوُعّاظُ لهم كالمؤذنين ، والأمة لا غِنى لها عن هذين ، فليس كلُّ عالمٍ بقادرٍ على الوعظ ، ولا الواعظُ بقادرٍ على التحرير والفتوى بفقهٍ عميق .

(٣) ليس المقصودُ ذمَّ الحفظ والذكر ، لكن المقصود ذمُّ مَن ظنَّ الحفظَ والذكرَ وحدهما هما الفقه والعلم .

عُرِضت عليه الخُطبة يُميل شِدْقَه ... (إلى أن قال :) وأصلُ قِلّة هذا الشان ، وعدمِ البيان : فسادُ الأزمنة ، ونُبُوُّ الأمكنة . وإنّ الفتنة نسخٌ للأشياء ، من العلوم والأهواء ، ترى الفهمَ فيها بائرَ السلعة ، خاسرَ الصفقة ، يُلمَحُ بأعينِ الشنآن ، ويُستثقَلُ بكل مكان ... »[١]

وقد وصف أبوالحسن الماوردي كبيرُ فقهاء الشافعية في زمنه (ت ٤٥٠هـ) هؤلاء الحفَّاظ مع ضعفهم في الفهم ، بقوله : « وربّما عُني المتعلِّمُ بالحفظ ، من غير تصوُّرٍ ولا فَهْمٍ ، حتى يصير حافظاً لألفاظِ المعاني، قيِّماً بتلاوتها ، وهو لا يتصوّرها ، ولا يفهم ما تضمّنها : يروي بغير رويَّة ، ويُخبِرُ عن غير خِبْرةٍ ، فهو كالكتاب : الذي لا يدفع شُبهةً ، ولا يؤيِّدُ حُجّةً[٢] »[٣] .

ولئن أخذوا على من لا يحفظ تَحَيُّرَه إذا ما أضاع كتبه ، فقالوا (كما سبق):

اسْتَوْدَعَ العلمَ قِرْطاسًا فَضَيَّعَهُ
فبئس مستودعُ العلمِ القراطيسُ

فماذا سيقولون إذا تحيّر من حَفِظَ بغير تمام فهم ، إذا احتاج للفهم فيما كان

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (١/ ١٧٠) .

(٢) هذا عالم متقدِّم سبق القائلَ من المُحْدَثين عمَّن حفظ بلا فهم « زادت نسخةٌ في البلد» !

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (٨٨) .

قد حَفِظَه ؟!

كما وقع مع الفقيه المالكي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي (ت٤٨٦هـ) ، حيث حكى ما وقع له من خَذْلِ الحفظِ القويِّ والكثير له ، عند احتياجه إلى العلم بما تضمّنه محفوظُه وعند لُجُوئه إلى الفهم الذي انشغل بالحفظ عنه ، حيث قال : « لولا حُضوري مجلس الشورى مع الحكام ، ما دَرَيتُ ما أقول في أول مجلس شاورني فيه الأمير سليمان بن أسود ، وأنا يومئذ أحفظ (المدونة) و(المستخرجة) الحفظَ المتقن»[١] .

فلا تَغْتَرَّ بحافظٍ ، وإن ظهر على الفقيه بمحفوظه ، واستطالَ عليه باستحضاره ؛ فإن مضايقَ المسائلِ تفضحُه ، وتحريرَ محاراتِ العقولِ تؤخّرُهُ، حتى لا يبقى له موضعٌ عند الفقيه !

ولهذا لما استطالَ أحدُ حفّاظ الحنابلة بحفظِه على أحد فقهاء الحنفية ، فظهر الحافظُ على الفقيه وَفاقَهُ بالحفظ . حتى وصل الجدلُ إلى دقائق الفَهْم وأعماق التفكير ، فتوقَّف الحنبلي الحافظُ عن الكلام تمامًا ، فتنفّسَ الفقيه (وهو نظام الدين يحيى بن يوسف بن محمد الصِّيْرَامِي القاهري ت ٨٣٣هـ) وقال صائحاً في الملأ : «طاح الحفظُ يا شيخ ، هذا مقام التحقيق !» فسكت ولم يردّ عليه[٢] .

---

(١) تبصرة الحكام لابن فرحون (١/ ٤) ، والمعيار المعرب للونشريسي (١٠/ ٧٩) .

(٢) الضوء اللامع ، للسخاوي (١٠/ ٢٦٦-٢٦٧) .

وقد نبَّه الحافظُ ابن حجر إلى حصول الاغترار بالحفظ عند من لا خِبْرَةَ له، في ترجمته لشيخه زين الدين العراقي ، فقال : « ومن أخصِّهم به : صِهْرُهُ شيخُنا نورالدين الهيثمي ، وهو الذي درَّبه وعلّمه كيفيةَ التخريج والتصنيف ، وهو الذي يعمل له خُطَبَ كتبه ويُسمّيها له . وصار الهيثميُّ لشدّة ممارسته أكثرَ استحضاراً للمتون من شيخه ، حتى يظن من لا خِبْرَةَ له أنه أحفظ منه ، وليس كذلك ؛ **لأن الحفظ المعرفة** »[١] .

وعليك أن تُوازن بين إمامين : أحدهما كان صاحبَ تحريرٍ وعنايةٍ بضبط كتبه والاطلاع عليها ، والآخرُ حاضرَ الحفظ ، قويَّ الاستحضار؛ ألا وهما: الخطيبُ البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، وابن ماكولا (ت٤٧٥هـ) . فقد قال أبوعبدالله الحُميدي : « كان الأمير ابن ماكولا إذا سألناه عن شيءٍ ، كأنه على طرف لسانه ، ولو عاش لجاء منه شيء . وما سألنا الخطيب عن شيءٍ قطّ فأجابنا من حفظه ، إنما يُحيلُ إلى كتبه »[٢] .

وقال هبةُ الله بن عبدالوارث الشيرازي ، وسُئل : « هل كان أبوبكر الخطيب كتصانيفه في الحفظ ؟ قال : لا ، كنا إذا سألناه عن شيءٍ أجابنا بعد أيام ، وإن ألْحَحْنا عليه غضب ، وكانت له بادرةٌ وَحْشَةٌ . وأما تصانيفه :

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر ، لابن حجر (٥/ ١٧٢) .

(٢) ذيل تاريخ بغداد ، لابن النجار (٤/ ٢٦٨) .

فمُهذَّبةٌ مصنوعة ، ولم يكن حفظُه على قدر تصانيفه »[١] .

وقال أبوالغنائم النَّرْسي عن الخطيب : « جبلٌ لا يُسأل عن مثله ، وما رأينا مثلَه ، وما سألتُه عن شيءٍ فأجاب في الحال ؛ إلا يرجعُ إلى كتابه »[٢] .

فهذان العالمان (: الخطيبُ ، وابن ماكولا) : أيهما الذي صار المحدِّثون عيالاً على كُتُبه إلى يوم الناس هذا ؟!! وأيّهما الذي نفع الأُمَّة نفعًا أجلَّ وأعظم ؟!! وأيُّهما الأَوْلى بِوَصْفِ العالِـم : آلحافظُ منهما ؟ أم الآخر : الذي كان لا يحفظ ، حتى لا يكادُ يُسأل ؛ إلا وأنْظَرَ السائلَ حتى يُراجع كتبه ، لكنه كان يفهم ، ويُدقِّقُ في الفهم ؟!! فإن استحقَّا جميعًا وَصْفَ العالِـم (وهما كذلك) ، فمن هو الأعلمُ منهما ؟!!

ولعله من هذا القبيل ما قاله صالح بن محمد ، وقد سُئل : « هل كان يحيى ابن معين يحفظ ؟ فقال : لا ، إنما كان عنده معرفة . قال السائل : فعليُّ بن المديني ؟ قال : كان يحفظ ويعرف »[٣] .

*** وأما الطريقة الثانية للحفظ:**

وهي أنفع لكبار السن ، ولمن لم يؤت موهبة الحفظ: وتتلخص في إدمان مجالسة كتب السنة ، وإدامة القراءة فيها ، والجلد في ذلك والصبر عليه ، مع

---

(١) منتخب المنثور من الحكايات والسؤالات ، لابن طاهر رقم (٥٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (١٨/ ٥٧٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٨) .

الإكثار من النسخ والكتابة ، وتعويد اليد على ذلك .

وغالبًا ما تكون هذه الطريقة ناجعةً مع قُوّة الفهم ، فيثبُتُ المحفوظ في الذهن بفهمه ، لا بمجرد تكراره .

وقد ذكر هذا النوعَ من الحفظ والنوعَ السابقَ أيضًا الراغبُ الأصبهاني (ت٤٢٥هـ) ، فقال : « الحفظ يُقالِ : تارةً لهيئة النفس التي بها يَثبُتُ ما يُؤدِّي إليه الفهم ، وتارة لضبط الشيء في النفس ، ويُضادُّه النسيان»[١] .

ولعلاقة هذه الطريقة في الحفظ بكثرة مطالعة الكُتب ، لما قيل للإمام البخاري: ما البَلاذُرُ ؟ وهو دواء كانوا يظنون قديمًا أنه يُقَوِّي الذاكرةَ ويُنَشِّطُ الذهنَ على الحفظ ، فأجاب الإمام البخاري، صارِفًا أذهانَهم إلى البَلاذُرِ حقًّا ، حيث قال: «هو إدامة النظر في الكتب»[٢] . وقال (في رواية أخرى) : « لا أعلم شيئا أنفعَ للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر »[٣] .

وقال العلامة أبو محمد عبد الله بن فِيرُّه الأندلسي : « قال رجلٌ لأستاذي الفقيه : ما تقول في البَلاذُر ؟ فقال : إن أردتَ البَلاذُر فعليك بالدرس والتناظُر ، وإن أردتَ البَلاذُرَ الكبير فعليك بالدرس الكبير »[٤] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب (٢٤٤) .

(٢) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم٢٤١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٦) .

(٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (٢/ ٢٤٤ رقم ٦٩٥) .

وقال عبدالله بن المبارك: « من أحب أن يستفيد ، فلينظر في كتبه»[١].

وقال الحافظ أبو مسعود أحمد بن الفرات (ت ٢٥٨هـ): «لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في الحفظ ، فأجمعوا أنه ليس شيءٌ أبلغَ فيه من كثرة النظر»[٢].

وأما الكتابة وأثرها في الحفظ ، فقد سبق أنْ ذَكَرْنا بأن المحفوظ كلما اشتركت أكثرُ من حاسّة في ضَبْطِه ، كلما كان ذلك أقوى له وأثبت . فإذا نظر القارىء ، ثم جهر بالقراءة ، ثم كتب ؛ فإنه – على حد تعبير والد الزبير بن بكار – يكون له ما أدَّى بصرُه إلى قلبه ، وما أدَّى سمعُه إلى قلبه ، وما أدّت يده إلى قلبه ؛ فلا ينسى بإذن الله تعالى ، لأنه اشترك في تَحَفُّظِهِ ثلاثُ حواسّ.

وقد قال الحسن بن علي (رضي الله عنهما)لبنيه وبني أخيه :«تعلّموا العلمَ ، فإنكم صغارُ قومٍ ، يُوشِكُ أن تكونوا كبارَهم غدًا ، فمن لم يحفظ منكم فليكتب »[٣].

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: « ما سمعت شيئاً إلا كتبتُه ، ولا كتبته

---

(١) الجامع للخطيب (رقم١٨١٣).

(٢) الجامع للخطيب (رقم١٨٧٣) ، والطيوريات (رقم٥٦٦) .

(٣) العلل للإمام أحمد (رقم ٢٨٦٥) ، ومسند الدارمي (رقم٥٢٨) ، وجامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم٤٨٤) ، والمدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٦٣٢ ، ٧٧٢).

إلا حفظته ، ولا حفظته إلا نفعني »[١].

ولـمَّـا قال يحيى بن زكريا بن أبي زائدة (ت١٨٤هـ) : «كتابُ الحديثِ خيرٌ من موضعه»[٢]، فسّرَ الحافظُ المُؤْتَمَنُ الساجي (ت٥٠٧هـ) مقالته بقوله : «لعله يريد : من حفظه»[٣] . ثم أسند إلى التابعي الثقة الكبير معاوية بن قُرّة (ت١١٣هـ) أنه قال: «من لم يكتب العلم فلا يعُدَّ علمَه علماً»[٤]، قال المؤتمن : « يعني : وإن حَفِظَه »[٥] .

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ٤٤٧)، والطيوريات (رقم ٥١٦) .

(٢) وقد أخرج هذا الأثر أيضًا الدارقطني في سُننه في سياقٍ مفيدٍ يحسُنُ الوقوفُ عليه (رقم٣٧) .

(٣) ويُمكن أن تُفسَّرَ بأنه : خيرٌ من موضعه بياضًا في الصحيفة ، كما جاء عن الشعبي أنه قال : «لا تدعنّ شيئًا من العلم إلا كتبتَه ، فهو خيرٌ لك من موضعه في الصحيفة ، وإنك تحتاج إليه يومًا ». تقييد العلم للخطيب (١٠٠) .
فمن رَأَىٰ هذا التفسيرَ أولى من تفسير الساجي ، فيبقى الاحتجاجُ قائمًا صحيحًا بكلام الساجي الذي يُعَبِّرُ فيه عن رأيِ نفسه ، وهو أحدُ أئمةِ الحديث وواحدٌ من حُفّاظِه .

(٤) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (رقم ٣٤١، ٣٤٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠١) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (رقم٤١٧) ، والخطيب في تقييد العلم (١٠٩) .

(٥) الروايتان وتعليق المؤتمن الساجي عليهما وردت في ذم الكلام لأبي إسماعيل الهروي (رقم ١٠٨١) ، من حواشي المؤتمن الساجي عليه .

* ولهذه الطريقة في الحفظ مميزات وعيوب :

فمن مميزاتها: أن صاحبها بطيء النسيان لمحفوظه ، لأن صاحبها إنما حفظ من خلال تعهُّدِه للمحفوظ ، وهو مداومة النظر في الكتب .

ومن مميزاتها : أن صاحبها أوسع استحضارًا من صاحب الطريقة السابقة ، لأنه أوسع اطلاعًا.

ومن عيوبها : أن صاحبها لا يستطيع الجزم بأنه يحفظ كتابًا ما ، خاصة المطولات . وأيضاً لا يستطيع في كثير من الأحيان أن يُؤدِّي ما حفظ باللفظ ، وإنما يؤديه بالمعنى ؛ وللرواية بالمعنى شروط ، وتحوم حولها أخطار.

ومن عيوبها : أنها تستلزم وقتًا طويلاً للحفظ ، وجَلَدًا وصبرًا ، وانقطاعًا كاملًا ؛ إذا أراد صاحبُها أن ينافس صاحبَ الطريقة الأولى.

ومن عيوبها : أن مَن قَصَدَ السيرَ عليها خِيفَ عليه الانخداعُ بكثرة القراءة غير المنضبطة ، والتي تبني مثقَّفًا .. لا عالمًا مُتخصِّصًا ! فلا يخرج من طول قراءته بمحفوظِ حافظٍ ولا بفقهِ عالمٍ ، ولكن بمعلوماتٍ متناثرةٍ من هنا وهناك ، تغُرُّهُ بالرضا عن نفسه ، ولا تفيدُه إن أراد بحثًا أو تحريرًا .

وأما من جمع بين طريقتي الحفظ هاتين فهو الحافظ الكامل ، الذي جمع بين محاسن الحفظ ، ونجا من عيوبه كلها. ولا يكاد يجمع أحدٌ بينهما على وجه الكمال ، إلا نادرًا !

* * *

الميزة الثالثة :

أن علمَ الحديث علمٌ لا تَضْبِطُ جميعَ جزئياته قواعدُ مطردةٌ دائمًا ، ولا تُوزَنُ مسائلُه بمقاييسَ رياضيةٍ ؛ وإنما قواعدُه وأصولُه أغلبيّةٌ. بل في كثير من مسائلِ علمِ الحديث يصرّحُ المحققون من أهل العلم أنه ليس لها قاعدةٌ معينة ، وإنما يُرجَعُ في كل جزئيةٍ منها إلى ملابساتها وقرائنها ، ثم يكون الحكم عليها بناء على حالتها الخاصة تلك . وذلك في مثل مسألة (زيادة الثقة) ، و (التفرد بأصل) ، و(الاعتضادِ والتَّقَوِّي بالمتابعات والشواهد) ، وما إلى ذلك من أعظم مسائل علم الحديث .

وليس عدمُ شمولِ قواعدِ علم الحديث لجميع جزئياته ، ولا عدمُ وجود قواعدَ أصلاً لبعض مسائله ، بسبب تقصيرٍ في تقنين هذا العلم وفي تأصيله من علماء الأمة ؛ بل سببه هو بلوغهم به أقصى غاياتِ التقعيد السليم والتأصيل الصحيح!! وذلك أن علمَ الحديث مادّته الأوليّة هي البشر ونُقُولُهم وأخبارهم ، وللبشر باختلافِ مواهبِهم الخِلْقِية ، وبتبايُنِ دوافعِهم وعقائدهم وسلوكيّاتهم ، وباضطرابِ أحوالهم من وقت لآخر ، وبما يطرأ عليهم من عوامل تغييرٍ نفسيةٍ وخارجيةٍ ؛ بذلك كله لا يمكن أن يكونَ لنقول هؤلاء وأخبارِهم ضوابطُ حسابيةٌ وموازينُ رياضيةٌ ، بل لابد من التعامل مع تلك المادة المتباينة الأجزاء ، الكثيرة التغيُّراتِ في كل جزء منها ، بما يتناسبُ وذلك ؛ وهذا هو ما فعله أئمةُ الحديث في عصور تكوينِ علمهم ...

رضي الله عنهم وأرضاهم!!

المهم أن تعلم أن هذه إحدى أعظم مميزات علم الحديث.

وهذه الميزة تعني: أن تَعَلُّمَ قواعدِ علمِ الحديثِ ودراسةَ مصطلحِه ليس سوى الخطوةِ الأولى في طلب علم الحديث، مهما تعمّقَ الدارسُ في تحصيل تلك القواعد والأصول. وما جَنى على علم الحديث شيءٌ في العصور المتأخّرة مثلُ الغفلةِ عن هذه الحقيقة، وذلك بالتعامل مع الروايات الحديثية بتلك القواعد معاملةَ من معه قوالبُ جاهزةٌ (هي تلك القواعد) ليصبَّ فيها مادّته الأوليّة (وهي الروايات أو الرواة)، أومعاملةَ من معه أختامٌ مُعَدَّةٌ يطبعُ بها على كلِّ مسألةٍ جزئية؛ دون أن يتنبهَ إلى أن لكل قاعدة شذوذاتٍ، وأن القواعدَ تتداخَلُ حتى كأنها تتعارَضُ. بل إنك لتجد الواحد من هؤلاء يختلقُ قاعدةً لما ليس له قاعدة، لعدم استطاعته إلا التعاملَ مع القوالبِ الجاهزة!!

وهذه الميزة تعني أيضًا: أن علمَ الحديث علمٌ حَيٌّ، فلا يعيشُ ولا ينمو في قلب رجلٍ إلا بالممارسة له والتطبيقِ العمليِّ لقواعده. لأن تداخُلَ القواعدِ الكثيرَ الوُقُوع، وشذوذاتِها التي كثيرًا ما تَتَرَدَّدُ في التطبيق (وإنما سُمِّيت شذوذاتٍ لأنها بخلاف القاعدة المنصوصِ عليها)، والمسائلَ التي لا قواعدَ لها = لا يُحْسِنُ الوقوفَ عليها، ولا يعرف المآخذَ والأُسُسَ التي تُبنى عليها أحكامُها، ولا يَلْحَظُ الملابساتِ والقرائنَ الخاصةَ بكل مسألةٍ

جزئيةٍ منها = إلا من عاش علمَ الحديث تطبيقًا عمليًا وممارسةً عميقةً فترةً طويلةً من عمره.

وعلى هذا .. فعلمُ الحديثِ يحتاجُ كلَّ الاحتياجِ لممارسةٍ طويلة ، وتطبيقٍ عمليٍّ عميقٍ ، ليمكنَ طالب الحديث بعد مرور زمن طويل من ذلك ، أن يتنبّهَ لطريقة العمل مع تداخُلِ القواعد وتمييز شذوذاتها ، ويَلْحَظَ ملابساتها ، وأن يقف بنفسه على مآخذ الأحكام في المسائل التي لا قواعد لها، وإنما يُرجَعُ فيها للقرائن الخاصة بكل مسألة.

وقد قال إسحاقُ بن الحسن الحربي (ت٢٨٤هـ) :« قلتُ لأبي عبدالله [يعني أحمد بن حنبل] :كم يُقنعُ الرجلَ أن يكتبَ من الحديث ؟ فقال له : يا إسحاق ، خدمةُ الحديثِ أصعبُ من طلبه ! (فقال إسحاق) قلتُ : ما خدمته ؟! قال : النظرُ فيه»[1] ، أي : تأمُّلُ مسائله والتفكيرُ الطويلُ في مشكلاته والبحثُ العميق عن جليّةِ محاراته !!

ويقول الخطيب البغداديُّ ، مُنَبِّهًا على أهمية الممارسة العملية في علم الحديث: « قَلَّما يَتَمَهّرُ في علم الحديث ، ويقفُ على غوامضه ، ويستثير الخفيَّ من فوائده ، إلا من جمع بين متفرِّقِه ، وألّفَ مُتَشَتِّتَهُ ، وضمَّ بعضَه إلى بعض ، وانشغل بتصنيف أبوابه ، وترتيب أصنافه. فإن ذلك الفعلَ مما

---

(١) المتفق والمفترق للخطيب (١/ ١١٤) .

يُقَوِّي النفسَ[١] ، ويُثَبِّتُ الحفظَ ، ويُذَكِّي القلبَ ، ويشحذُ الطبع ، ويبسط اللسان ، ويجيد البيان ، ويكشف المشتبه ، ويوضح الملتبس ، ويكسب أيضًا جميلَ الذِّكرِ ، وتخليده إلى آخر الدهر » . ثم أسند الخطيبُ إلى عبد الله بن المبارك ، أنه قال: «صنفتُ من ألف جزء جزءًا ، ومن نظر في الدفاتر فلم يفلح ، فلا أفلح هو أبدًا »[٢].

وهيئة هذه الممارسة التي نُطالب بها طالبَ علمِ الحديث ، هي: أن يقوم الطالب بما يشبهُ التصنيفَ والتأليف ، إما بتخريج أحاديثِ كتابٍ ما ، أو أحاديثِ بابٍ فِقْهِيٍّ معيّنٍ ، أو بالترجمة لرواةِ كتابٍ لم يُخدم رواتُه بالترجمة، أو بالعناية بالرواة المختلَف فيهم ، أو بجمع أقوال الأئمة وتطبيقاتهم حول قاعدةٍ من قواعد علم الحديث أو حول أحد مصطلحاته.. ونحو ذلك من الموضوعات الكثيرة جداً. والأفضل أن يُنَوِّعَ طبيعةَ بحوثه ، حتى يستفيد فائدةً أعمَّ وأشمل ، خاصة في أوائل تخصُّصِه في علم الحديث .

ولا شك أنه يجب أن يكون مقصودُه من هذه البحوث التي يعملها واضحًا عنده تمامَ الوضوح ، فلا يتوهَّمُ أن غرضه من هذه البحوث هو

---

(١) إن كانت بسكون الفاء (النَّفْس) ، فهي تعنى الهِمّة والإرادة ، ويكون المعنى : تُقَوِّي الإرادة وتَشْحَذُ الهِمّة . وإن كانت بفتح الفاء (النَّفَس) ، فهي تعني الطبيعة والمَلَكَة ، ويكون المعنى : تُقَوِّي مَلَكَتَه وتَصْقُلُ طبيعتَه .

(٢) الجامع للخطيب (رقم ١٩١٣ ، ١٩١٤).

تأليفُ كتابٍ يخرجُه للناس ، خاصة في مرحلة تكوينه العِلْمِيِّ الأُولَىٰ ، وإنما يكون غرضُه من ذلك التعلُّمَ والتمرُّنَ ، للفوائد التي ذكرها الخطيبُ في كلامه السابق عن الممارسة العملية في علم الحديث .

ولا يمنع ذلك من أن يبتدىء طالبُ الحديث مشروعًا علميًا كبيرًا ، من صِغَرِ سِنّه وبداياتِ طلبه ، يجمع له ويرتّب ويناقشُ ويستنبط ويستدلّ ، ويقضي في ذلك عُمُرًا من عُمُرِه ، وبشرط أن لا يُخرِجَ مشروعَه هذا إلا بعد بلوغه من العلم ما يكون قد وصل به إلى درجة الإفادة ، كأن يشهد له شيوخُه وأقرانُه باستحقاقه أن يُدلي بجهده في تأليف كتاب .

بل إني لأُشدِّدُ في النصح لطلبة العلم بابتداءِ مشاريعَ من هذا القبيل، ولا يستخفّوا بأنفسهم ؛ فقد كان الإمام الزهري يقول للفتيان والشباب: « لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان ، فاستشارهم ، يبتغي حدة عقولهم»[(١)] .

ولـمّا ألغزَ رسولُ الله ﷺ على أصحابه لُغْـزًا ، وكانوا عشرة ، فيهم كبارُ الصحابة وفقهاؤهم : أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، لم يعرف حَلَّ اللُّغزِ إلا أصغرهم في ذلك المجلس ، وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) . فأفادَ الحافظُ ابنُ حجرٍ من هذه القصة فائدةً ، قال في ذِكْرها :

---

(١) تاريخ ابن أبي خيثمة (رقم٢٣٢) ، و جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (رقم ٥٠٥ ، ٥٠٦) ، والمدخل للبيهقي (رقم ٦٣٤) .

«أن العالِمَ الكبيرَ قد يَخْفَى عليه بعضُ ما يُدركُه من هو دونه ؛ لأنّ العلمَ مواهبُ ، والله يُؤتي فضلَه من يشاء»[(١)] .

وقد قال القائل :

إنّ الحداثــــةَ لا تُقَــــصِّـ ـرُ بـالفتى المـرزوقِ ذِهْنـا
لكـــن تُـــذكّي قلبَـــه فـــيفوق أكـــبرَ منـــه سِـــنّا

وقال الآخر :

رأيـتُ الفهـمَ لم يكـنِ انْتِهَابـا ولم يُقْسَمْ عـلى مـرِّ الـسنينِ
ولـــو أن الـــسنينَ تقاســـمتْهُ حـوى الآبـاءُ أنْـصِبَةَ البنـينِ

وقال آخر :

فــما الحداثــةُ مـــن حِلْـــمٍ بمـــانعةٍ
قد يُوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبان والـشيبِ

وقال الشاعر عن فاتحِ السِّنْد محمدِ بنِ القاسمِ الثقفيِّ ، وقد قاد الجيوشَ وفتحها وهو ابن سبع عشرة سنة :

إن السماحةَ والـمروءةَ والنَّـدَى لـمحمدِ بنِ القاسمِ بن محمدِ
قاد الجيوشَ لسَبْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً يا قُرْبَ ذلك سُؤْدَدًا من مَـوْلِدِ

وقال ابنُ قتيبةَ الدِّينَوَرِيّ (ت٢٧٦هـ) : «وُلِّيَ معاذُ بن جبل اليمنَ وهـو

---

(١) فتح الباري (١/ ١٧٧ ، شرح الحديث الذي برقم٦١) .

ابنُ أقلَّ من ثلاثين سنة ، وحَمَلَ أبو مسلم الخراساني أمرَ الدولة والدعوة وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، وحمل الناسُ عن إبراهيم النخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وولَّى رسولُ الله ﷺ عَتَّابَ بنَ أَسيدٍ مكةَ وهو ابنُ خمسٍ وعشرين سنة ، وسوَّدتْ قريشٌ أبا جهلٍ ولم يُطِرَّ شاربُه فأدخلته مع الكهول دار الندوة .

وقدم وفدٌ على عمر بن عبد العزيز من العراق ، فنظر إلى شابّ منهم يتحوَّزُ[1] يريدُ الكلامَ ، فقال عمر : كبِّروا ..كبِّروا ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، إن الأمرَ ليس بالسنّ ، ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسنّ منك ! فقال : صدقتَ ، فتكلّم »[2] .

*** ولك في سِيَرِ العلماء قدوة:**

فقد بدأ الإمام البخاري تصنيفه للتاريخ الكبير وله من العمر ثمانية عشر عاماً ، وبقي في تصنيفه وتحسينه غالب حياته . أما (صحيحه) فمكث في تصنيفه ستة عشر عاماً.

وابتدأ ابن عساكر تصنيف (تاريخ دمشق) بمجلداته الثمانين من صباه ، واستمر في جمعه إلى أن شاخ.

---

(١) أي يتلوّى ويتهيأ .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢٣٠) .

وأفنى الطبراني عمره المديد (فقد عُمِّرَ مائةَ سنة) في معجمه الأوسط .

فعليك يا طالب العلم أن تختار مشروعًا علميًا حديثيًّا نافعًا ، واستشرِ العلماءَ والمأمونين في اختيارك ، وابدأ في الجمع له والتأليف من فترة مبكرة ، ولا تُـفَوِّتِ العُمر. ثم أنت خلال هذا الجمع تمارسُ علمَ الحديث عمليًّا ، وتطبقه واقعيًّا ؛ فتستفيد فائدتين ، بل فوائد ، وتُعْلي هِـمَّتك ، وتُقوِّي عزمَك ، وتبذل جهدك في طلبك العلم ، وتطرد الملل والسأم وقلة الصبر ، بما يتجدّدُ لك في بحثك من فوائد ، تنتظر قطفَ ثمرتها في مستقبل حياتك العلمية إن شاء الله تعالى.

* * *

الميزة الرابعة :

أنه علم مترامية أطرافه ، متشعّبة أنحاؤه ، فلا ساحل لبحوره ، ولا قاع لأعماقه.

هذا وصفٌ حقيقي مطابقٌ لواقع حالِ علم الحديث ، وليس كلامًا أدبيًّا مجازيًّا يُبنى على المبالغة والتهويل .

وقد قال أبو بكر الحازمي (ت٥٨٤هـ) : «علمُ الحديث يشتملُ على أنواعٍ كثيرة ، تقرُبُ من مائة نوع ، وكلُّ نوعٍ منها عِلْمٌ مستقِلٌّ ، لو أنْفَدَ الطالبُ فيه عُمُرَه لما أدرك نهايته !!!»[1] .

وتحقيقُ ذلك عندك وتأكيدُه لديك يظهر : بتذكُّرِكَ عظيمَ تشعُّبِ أسانيد الأحاديث وكثرتها ، وتناثرَ تراجمِ الرواة ، وتَبَعْثُرَ عباراتِ جرحهم وتعديلهم التي في مَظِنّتِها وغير مظنتها ، وتباعُدَ ما بين تعليلات الأئمة للحديث الواحد في مصادرِ هذا العلم الواسعة الكثرة ؛ مما لا يجمع ذلك كتاب.. بل لا تكاد تجمعه مكتبة ، ولا أن يحويه مكانٌ واحد .

وقد قال الحافظُ الناقدُ مروانُ بنُ محمّد الطاطَري الدمشقي (ت٢١٠هـ): «ثلاثةٌ ليس لصاحب الحديث عنها غِنى : الحفظ ، والصدق ، وصِحة الكُتب . فإن أخطأ واحدة ، وكانت فيه اثنتان ، لم يضرَّه ؛ إن أخطأ الحفظَ ،

---

(١) عُجالة المبتدي وفُضالة المنتهي للحازمي (٣) .

ورجعَ إلى الصدق وصحة الكتب ، لم يَضُرَّه . (ثم قال :) طال الإسناد ! وسيرجع الناس إلى الكتاب »[١] .

وقال يحيى بن معين : « ينبغي للمحدّث أن يتّزرَ بالصدق ، ويرتديَ بالكُتب»[٢] .

ولهذه الميزة: فإن طالب الحديث في حاجة ماسة إلى مكتبة عامرة بالكتب، مكتبة ضخمة بمعنى الكلمة ، تكون بين يديه وقتما يشاء ، مكتبة تنمو وتزيد كل يوم بالجديد من المطبوعات والمقدور عليه من المخطوطات، ولا تقف عن النمو ما دام صاحبُها حيَّ العلمِ والروح . حيث إن تلك الميزة لا يحل إشكالها ، ولا يمكن مواجهتها ، إلا بالمكتبة الجامعة لكتب السنة ، والمقربة لأطراف هذا العلم المترامية ، المعينة على استيعاب جُلِّ .. أو كثيرٍ من جُزئياته المتفرقة المتشعّبة .

ولذلك فعلى طالب العلم أن يتحلى بالبذل والسخاء في اقتناء الكتب ، وأن يُقدِّمَ شراءَ الكتاب على طعامه وملبسه وملذّاته ، وأن يحرص كلَّ الحرصِ على أن لا يُفَوِّتَ كتابًا صَغُرَ أو كَبُرَ في علم الحديث ، وفي أيِّ فنٍّ من فنونه .

---

(١) الجرح والتعديل – مقدمته – (٢/ ٣٦) ، والكامل لابن عدي (١/ ١٥٩) ، ومعجم ابن المقرئ (رقم ٨٣) ، والكفاية للخطيب (٢٦٥) .

(٢) الكفاية للخطيب (٢٦٦) .

وقد قال الجاحظ : « فالإنسان لا يعلم حتى يَكْثُرَ سماعه ، ولابد من أن تكون كتبه أكثرَ من سماعه ، ولا يعلمُ ، ولا يجمع العلم ، ولا يُختَلَف إليه = حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ، ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه . ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذَّ عنده من إنفاق عشاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً . وليس ينتفع بإنفاقه، حتى يؤثر اتخاذَ الكتب إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله ، وحتى يؤمِّل في العلم ما يؤمِّلُ الأعرابيُّ في فرسه »[١] .

ومن نصائح ذي النون المصري (ت ٢٤٥هـ) في ذلك: «ثلاثة من أعلام الخير في المتعلم: تعظيم العلماء بحسن التواضع لهم ، والعمى عن عيوب الناس بالنظر في عيب نفسه ، وبذل المال في طلب العلم إيثاراً له على متاع الدنيا» [٢].

وكيف لا يكون للكتب هذه المكانة ؟! وهي رأس المال لطالب العلم . وقد قال الخليل بن أحمد: «اجعل ما في كُتبك رأسَ مالِك، وما في قلبِك للنَّفقة»[٣].

وكيف لا يكون لها هذه المكانة ؟! وهي أنفع لطالب العلم من الشيوخ[٤]،

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ (١/ ٥٥) .

(٢) المدخل إلى السنن للبيهقي (رقم ٦٨٥).

(٣) تقييد العلم للخطيب (١٤٠-١٤١) ، والطيوريات (رقم ٥١٣) .

(٤) يقول ابن الجوزي في سياق تفضيل التصنيف على التدريس : «ودليلُ هذا : أن انتفاعَ الناس بتصانيف المتقدّمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم» : صيد =

على جليل قدر الشيوخ ومَسِيسِ حاجة الطالب للمعلِّم ؛ حيث إن طالب العلم كلما كان في بداية الطلب كانت حاجته للشيخ أكثر من حاجته إليه إذا ازدادَ علمُه ، وما تزال حاجتهُ للشيخ في نقصان ، حتى يصل هو حدَّ الشيوخ المفيدين . وأما حاجةُ طالب العلم للكتب فلا تنقص مع زيادة علمه ، بل تزداد بزيادة العلم ، حتى إنك لترى العلماء أعظمَ الناس شغفًا بالكتب ، بل إنك لترى أنه قد أصبحت عندنا زيادةُ شغف العالم[١] بالكتب شاهدًا من أبرز الشواهد على زيادة علمه ، ودليلا على رِفْعةِ قَدْرِه فيه بِقَدْرِ شَغَفِهِ بها .

وهذا هو معنى قول الإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ) : «كان العلمُ في صُدُورِ الرجال ، ثم انتقل إلى الكتب ، ومفاتِحُه بأيدي الرجال . والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئًا ، دون فَتْحِ العلماء»[٢] .فعند العلماء مفاتيحُ فَهْمِ الكُتب، فإذا حَصَّلَ الطالبُ مفاتيحَ العِلْم من الشيوخ ، فليس له لتحصيل العلم إلا أن يكون عنده بيوتُ العلمِ وخزائنُ الحكمة ، وهي الكُتب . فلا ينفعه أن يمتلك البيت بلا مفاتيح ، كما لا ينفعه أن يمتلك المفاتيح بلا كتب .

= الخاطر (٢٠٧ الخاطرة التي برقم١٦٤) .

(١) الحديث هنا عن شغف العلماء ، وليس شغف الكُتْبِيِّين وجمّاعي تُحفِ الكتب ، ولا شغف مُدّعي العلم ممن حظُّهم من الكتب (بعد جمعها) حِفْظُ بعض المتون وتكرار تقريرات غيرهم بغير فقه ولا صِحّةِ استدلالٍ . فقد يشغف بالكتب غير العلماء ، فلا يكون بمجرّد الشغف بها عالمًا .

(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ١٤٧-١٤٨) .

ولهذه الأهمية القصوى للكتب ، وعند المحدّث خاصّة ، قال غير واحد من أهل العلم ، منهم شعبة بن الحجاج: « من طلب الحديث أفلس»[١] ، وقال الفضل بن موسى السِّيْناني: « طلب الحديث حِرْفةُ المفاليس »[٢] ، ولما سأل سفيان بن عيينة رجلاً عن حرفته ، فأجابه الرجل بأنها طلب الحديث ، فقال سفيان : «بَشِّرْ أهلَك بالإفلاس»[٣] ، وقال شعبة : « إذا رأيتَ المحبرة في بيت إنسان فارحمه ، وإن كان في كُمِّك شيءٌ فأطعمه»[٤] ، ولما أثنت امرأةٌ على رجلٍ بخير ، وقالت في ثنائها : « لا يتّخذُ ضَرّةً ، ولا يشتري جارية » ، أجابتها زوجُ ذلك الرجل بقولها : « والله لهذه الكتبُ أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائر»[٥] .

وهذا يحيى بن معين يُخلِّفُ أبوه له ثروةً عظيمةً ، تُقَدَّر بألفِ ألفٍ (أي : مليون) وخمسين ألف درهم ، فأنفقها كلَّها على جمع الحديث وكتبه ، حتى أفلس ، فلم يبقَ له نعلٌ يلبسه[٦] !! لكنه بإفلاسه هذا أصبح يحيى بنَ معين: إمامَ الإسلام في الجرح والتعديل بلا منازع !!!

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (رقم ٥٩٧) ، والجامع للخطيب (رقم ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ٥٨).

(٣) الجامع للخطيب (رقم ٥٧).

(٤) الجامع للخطيب (رقم ٦٠).

(٥) الجامع للخطيب (رقم ٦١).

(٦) الكامل لابن عدي (١/ ١٢٥) .

وأما طالب العلم (بزعمه) الذي يقول : يُغنيني كتابٌ في السنة وعلومها عن كتاب في ذلك ، فليس بطالب علم! ولا يريد أن يكون طالبَ علم . فإني لا أقول إنه لا يُغني كتابٌ عن كتاب فقط ، بل أكاد أقول : لا تُغني طبعةٌ من كتابٍ عن طبعةٍ أخرى له !!!

وأما طالب العلم الذي يقول: لا أشتري كتابًا حتى أقرأ وأدرس الكتابَ الذي عندي ، فلا يُفلح في العلم أبدًا ! ولو لم يكن في شراءِ الكتب إلا أنه عبادةٌ يُؤجر عليها فاعلُها ، لوجوه ، منها أنها مما لا ينقطع العمل به بعد الموت ، حيث تبقى الكُتُبُ فينتفع بها الذين من بعده = لكفاه سببًا للحرص عليه ! كيف وقد انضمّ إلى ذلك أنه من أوسع فِجاجِ العلم وأشرع أبوابه !!

ثم إن تكوين المكتبة العامرة يشبه طلبَ العلم من جهتين:

الأولى: كما أن طلب العلم لا يكون جُملة ، في أيام أو ليالٍ ، كذلك تكوين المكتبة ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال متابعةٍ دائبةٍ للجديد من الكتب في عالم المطبوعات ؛ حيث إن الكتب في السنة وعلومها كثيرة جداً ، قلةٌ من الأغنياء – ممن يعرف قيمة الكتب – من يستطيع شراء الموجود منها دفعةً واحدة . وهناك كتبٌ نادرةٌ ، وكتبٌ سُرْعانَ ما تنفدُ من الأسواق . فمن لم يبادر بشرائها ، فاتته ، وسيندم حينها على تفريطه عندما لا ينفع الندم ، وسيندم إن كانت فيه بقيةٌ من طالبِ علم.

الثانية: أن طَلَبَ العلمِ الصادقَ يُلْجِيءُ طالبَ العلم إلى دراسة مسائل ما كان يظن قبل ذلك أنه سيحتاج دراستها ، وكذلك هو الأمر في تكوين

المكتبة ؛ فإن شراءك الكتابَ ومعرفتَك لمحتواه يدلُّك على كتابٍ آخر ، ربما لم تسمع به ، وربما سمعتَ به ولم تظن أنك محتاجٌ إليه ؛ فالحاجة للكتب تنمو مع نُمُوِّ طلبك للعلم . وكم من كتابٍ ما كنتُ أظن أني سأنظر إليه ، أصبح بعدُ في حِجْري لا أستغني عنه ما دمتُ أبحث في العلم . فمن كان يجمع الكتب من بدايات طلبه للعلم ، سيحمد ذلك عندما يعرف قيمةَ ما جمع . وأما من كان لا يشتري حتى يقرأ ما جمع فإنه إنِ انْصَلَحَ حالُه ، فسيندم على سوء سياسته تلك بعد حين ، ولاتَ حين مندم.

ولو تصفّحتَ تراجمَ كبارِ الأئمة ، والعلماء المبرزين ، لوجدت أن القاسم المشترك بينهم هو حب الكتب والشغف بها ، وأنهم من أصحاب المكتبات العظيمة (مِلكاً لها ، أو إشرافًا عليها) . وأما رحلتهم مع الكتاب وقصتهم معه ، فهي قصص تملؤها العاطفة والتفاني والبذل واحتقار الدنيا وملذاتها: فكم من عالم رضي بالجوع دهرًا ليقتني الكتب ، وكم من عالم باع توبه الذي على جسده أو داره التي يسكنها ليمتلك كتاباً ، وكم من عالم رضي ببكاء أهله وأولاده عُرْيًا وحرمانًا ولم يرض بيع كتاب له ، وكم من إمام بكى وغلب حزنُه صبرَه لما فاته كتاب.. وكم و كم!! [1] .

---

(١) وفي كتاب (صفحات من صبر العلماء) لعبد الفتاح أبو غدة (رحمه الله) أمثلة وافرة من ذلك ، وأخَصُّ منه بالموضوع كتابُ (عُشّاق الكتب) لعبد الرحمن يوسف فرحان ، ونحوه كتاب (المشوِّقُ إلى القراءة وطلب العلم) لعلي العمران .

ومن عجائب ذلك قصة الحافظ أبي العلاء الحسن بن احمد بن سهل الهَمَذَاني العطار (ت ٥٦٩هـ) ، وكان قد جمع كتباً كثيرة ، ورحل إلى البلدان من أجل ذلك ، وعمل داراً للكتب وخزانة ، ووقف جميع كتبه فيها لطلبة العلم! من غرائب ما حصل له في جمعه للكتب: أنه كان مرة ببغداد ، ونُوديَ بالمزاد على كتب لابن الجواليقي بمبلغ كبير ، فاشتراها أبو العلاء العطار ، على أن يُوفِّي الثمنَ بعد أسبوع ، ولم يكن لديه ثمنها . فخرج إلى طريق همذان ، فرحل ، إلى أن وصلها ، فأمر بأن يُنادى على داره بالبيع!!! فلما بلغت الثمنَ الذي اشترى به الكتب ، قال للمنادي: بيعوا ، فقال له المنادي: تبلغُ الدارُ أكثرَ من ذلك ، فلم ينتظر الزيادةَ خشيةَ أن ينتهي أمدُ وفاءِ ثمنِ الكُتب ، فباع داره ، ثم ركب إلى بغداد ، فوفَّى الثمنَ ، ولم يشعر أحدٌ بحاله إلا بعد مدة !!!

ولما تُوفِّيَ هذا الإمامُ رُئيَ في المنام وهو في مدينةٍ جميعُ جُدرانها مبنية بالكتب ، وحوله كتبٌ لا تُحصى ، وهو مشتغلٌ بمطالعتها!! فقيل له : ما هذه الكتب ؟! قال: سألتُ ربي أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا ، فأعطاني !!

وقال الخطيب البغدادي : « قال بعضُ أهل العلم : ينبغي للمرء أن يَذْخَرَ أنواعَ العلوم ،وإن لم تكن له بمعلوم . وأن يستكثرَ منها ، ولا يعتقدَ الغنى عنها ؛ فإنه إنِ استغنى عنها في حال ، احتاج إليها في حال . وإن سئمها في

وقت ، ارتاح إليها في وقت .وإن شُغِلَ عنها في يوم ، فرغ لها في يوم . وأن لا يُسرع ويَعْجَلَ ، فيندم ويَوْحَل[١] ؛ فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتابٍ عن يده ، ثم رامه فتعذّرَ عليه مرامه ، وابتغى إليه وصولا ، فلم يجد إليه سبيلا ، فأتعبه ذلك وأنصبه ، وأقلقه طويلا وأرّقه .

كالذي يُحكى عن بعض العلماء ، قال : بعتُ في بعض الأيام كتابا ، ظننتُ أني لا أحتاج إليه . فلما كان ذات يوم ، هجس في صدري شيءٌ كان في ذلك الكتاب ، فطلبتُه في جميع كتبي ، فلم أجده . فاعتمدتُ أن أسأل عنه عالما عند الصباح ، فما زلتُ قائما على رجلي إلى الصباح ، قيل : فهلّا قعدتَ؟! قال : لطول أرقي وشدّة قلقي !!

وباع آخرُ كتابا ظنَّ أنه لا يحتاج إليه ، ثم إنه احتاج إليه ، فالتمسَ نُسخةً منه ، فلم يجدْها بعارية ولا ثمن . وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده ، فشَخَصَ إليه ، وسأله الإقالةَ وارتجاعَ الثمن منه ، فأبى عليه . فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه ، فلم يُجبْه . فانْكَفَأَ قافلا ، وآلى على نفسه أن لا يبيعَ كتابًا أبدًا .

---

(١) في المصدر (يوجل) بالجيم ، ولا معنى لها هنا . وأما (يَوْحَل) من وَحِلَ : إذا سقط في الوَحْلِ (وهو الطين الرطب) ، ويُستعار هذا الفِعْل بمعنى التورُّط، حتى لقد ذكروا من أسماء الوحل : الورطة . ومازال أهلُ الحجاز يستخدمون هذا اللفظ بمعنى التورّط ، فهو من فصيح العامة .

وقيل لآخر : ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؟! فقال : إن لم أحتجْ إليها اليوم ، احتجتُ إليها بعد اليوم .

واشترى رجلٌ كتابا ، فقيل له : اشتريتَ ما ليس من علمك !! فقال: اشتريتُ ما ليس من علمي ليصير من علمي .

وقيل لآخر : ألا تشتري كتبا تكون عندك ؟ فقال : ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم ، فقيل : إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم !!

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه ، فقيل له: إنك تشتري ما لا تحتاج إليه ! فقال : ربما احتجتُ ما لا أحتاج إليه !!

ومما يُعزى إلى السريّ بن أحمد :

لا تُخْدَعَنّ عن العلومِ فإنها
سُرُجٌ يزيدُ على الزمانِ ضياؤها
تُنْسَى القرونُ فلا يُشيدُ بذكرِها
أحدٌ ، ويُذكَرُ دائبًا علماؤها
فاحرص على جَمْعِ العلوم فإنها
رِيُّ القلوبِ من الصَّدَى وشفاؤها

وكان بعضُ القُضاة يشتري الكتب بالدين والقرض ، فقيل له في ذلك ، فقال : أفلا أشتري شيئا بلغ بي هذا المبلغ ؟! قيل : إنك تُكثر !! فقال: على

قَدْرِ الصناعة تكون الآلة!! »[١]

فعلى طلبة الحديث أن يبدؤوا في تكوين مكتبة من بداية طلبهم ، شيئاً فشيئاً ؛ فإنهم إن استمروا في الطلب فسيجدون غِبَّ ما جمعوا خيرًا وفائدةً واستغناءً وسعادةً!

* * *

(١) تقييد العلم للخطيب (١٣٦-١٣٧).

منهجُ القراءةِ والتعلُّمِ لكتب الحديث والمصطلح

بعد ذكر المميزات السابقة لعلم الحديث، وما تستلزمه كل ميزة منها من أسلوب معين تُواجَهُ به في الطلب والتحصيل؛ بقي وضع تصوُّرٍ عامٍّ لمنهج القراءة والتعلم في كتب الحديث وعلومه.

ولن أكون في هذا المنهج بعيداً عن الواقع، فأطالبُ جيلَ اليوم بما كان يُلزم به السلفُ طلابَ العلم في زمانهم؛ كما سئل الإمام أحمد «عن الرجل يكون معه مائة ألف حديث، يقال إنه صاحب حديث؟ قال: لا، قيل: عنده مائتا ألف حديث، يقال له صاحب حديث؟ قال: لا، قيل له: ثلاثمائة ألف حديث؟ فقال بيده يمنة ويسرة»[(١)]. وقال أبو بكر ابن أبي شيبة: «من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاء لم يعد صاحب حديث»[(٢)].

---

(١) الجامع للخطيب (رقم ٢)، والفقيه والمتفقه له (٢/ ١٦٣-١٦٤)، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٥٠، ٣٧٩)، وقد رُويت هذه القصة من أكثر من وجه، فانظر طبقات الحنابلة (١/ ١٨٥)، والمسودة لآل تيمية (٢/ ٩٢٢-٩٢٤). وقد شكّكَ ابنُ الوزير اليماني في صحة هذا الخبر من أحد وجوهه، فانظر: العواصم والقواصم في الذَّبِّ عن سُنّةِ أبي القاسم (١/ ٢٩٩).

(٢) الجامع للخطيب (رقم ٣)، وأدب الإملاء والاستملاء للسمعاني (رقم ٢٨).

بل لن أزن طلاب اليوم بعرف أهل العلم في القرن الثامن الهجري!!

فقد سأل تقيُّ الدين السبكي (ت٧٥٦هـ) الحافظَ جمال الدين أبا الحجاج المِزِّي (ت٧٤٢هـ)، عن حدِّ الحفظ الذي إذا انتهى إليه الرجلُ جاز أن يُطلق عليه (الحافظ)؟ فقال المزي: «يُرجَعُ إلى أهل العُرف، (قال السبكي:) فقلتُ: وأين أهل العُرف؟! قليلٌ جدًّا!! فقال المزي: أقلُّ ما يكون: أن يكون الرجالُ الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم، ليكون الحكم للغالب. فقلت له: هذا عزيزٌ في هذا الزمان! أدركتَ أنت أحدًا كذلك؟ فقال: ما رأينا مثلَ الشيخ شرف الدين الدمياطي ...»[1].

وقال تاجُ الدين ابنُ تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ): «إنما المحدث من عرفَ الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ من ذلك جملةً مستكثرة من المتون، وحفظ البعض من الأسانيد، وسمع الكتب الستة ومسند أحمد وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألفَ جزء من الأجزاء الحديثية، هذا أقل درجاته؛ فإذا سمع ما ذكرناه، وكتب الطِّباقَ، ودار على الشيوخ، وتكلّمَ في العلل والأسانيد، كان في أول درجات المحدثين، ثم يزيد الله من شاء ما شاء»[2].

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي (١/ ٣٧).

(٢) معيد النعم ومبيد النقم للسبكي (٨٢-٨٣).

فهذا كله بحسب عرفهم!! إذ (لكل زمان دولة ورجال) . كما قال أبو الفتح ابن سيّد الناس اليَعْمُري (ت٧٣٤هـ) ، عندما سُئل عن المحدّث وحَدِّه في زمنه ، فأجاب ، ثم قال : « وأما ما نُقل عن المتقدمين في ذلك : من سعة الحفظ فيمن يُسمَّى (حافظا) ، والدُّؤوبِ في الطلب الذي لا يستحقُّ الطالبُ أن يُطلَق عليه (محدّث) إلا به ، كم قال بعضُهم : (كنا لا نعدُّ صاحبَ حديثٍ من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاءً) ، فذلك بحسب أزمنتهم »[١] .

بل هذا الحافظ ابن حجر (ت٨٥١هـ) يَسْتَعْسِرُ الحدَّين كليهما اللذين ذكرهما المزي وابن سيد الناس ، مع قُرب زمنه منهما ، فيسأل شيخه الحافظَ زينَ الدين العراقيَّ (ت٨٠٦هـ) عن إمكانية التخفُّفِ من تلك الشروط ؟! فأجابه العراقي إلى ذلك ، إلى أن قال عن الحدّ الذي رآه : « فهو أمرٌ ممكنٌ ، بخلاف ما ذُكر من جميع ما ذُكر ، فإنه يحتاج إلى فراغٍ وطولِ عمرٍ وانتفاءِ موانع »[٢] .

فلن أخاطب إلا أهل زماني ، بضعف هممهم ، وكثرة الصوارف لهم عن طلب العلم[٣].. وفي الله الخلف وهو المستعان!

---

(١) أجوبة ابن سيد الناس (٢/ ١٦٥٠١٦٦ رقم٣٨) .

(٢) أجوبة الحافظ العراقي على أسئلة ابن حجر (١٣٧-١٣٨، ١٤٤ -١٤٥ رقم٥) .

(٣) ولما ذكر ابن طولون (ت٩٣٥هـ) عامة ما قيل في حدِّ المحدث والحافظ ، انتقد أهل=

= عصره لتوسعهم في هذه الإطلاقات، فقال: «وقد رأيتُ جماعةً من الأروام، قُصاراها النظر في (مشارق الأنوار) للصاغاني، فإن ترفَّعت ارتفعت إلى (مصابيح) البغوي. ظنَّ بعضُهم أنه وصل بهذا القدر إلى درجة المحدّثين! والبعضُ الآخر إلى درجة الحُفاظ!! وما ذاك إلا لجهلها بالحديث. فلو حفظ من ذكرناه هذين الكتابين عن ظهر قلب، وضم إليهما من المتون مثليهما، لم يكن محدّثًا، فضلاً عن حافظ!! ولا يصير بذلك محدّثاً حتى يلج الجملُ في سَمِّ الخِياط!!! فإن رامت بلوغَ الغاية في الحديث - على زعمها- : اشتغلت بـ(جامع الأصول) لابن الأثير، وإن ضمّت إليه كتاب (علوم الحديث) لابن الصلاح، أو مختصره المسمى بـ(التقريب والتيسير) للنووي، ونحو ذلك = وحينئذٍ يُنادى من انتهى إلى هذا المقام بـ(محدِّث المحدثين) و(بخاري العصر)، وما يناسب هذه الألفاظَ الكاذبة»، نقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون (١١٦-١١٧).

ومقصوده بـ(الأروام): الأتراك العثمانيين، والعُهدة عليه. ولا يُفهم من ذلك التعميم على جميع علماء الدولة العثمانية، التي امتدت لستة قرون!

وكيف لو رأى ابن طولون زماننا؟! وقد أصبح مَن: حَفِظَ بعضَ المتون، وجمع الكتب، وربما كانت عنده إجازة بالرواية، وربما أضاف إلى ذلك أنه ألّف رسائلَ أو مجلّدات قليلةَ الفائدة (فهي بين: نَقْلٍ صِرْفٍ، وجَمْعٍ قاصرٍ، وفَهْمٍ ضعيفٍ، فالتحرير من هذه المؤلفات أبعد من أن يستحقَّ نَفْيَه عنها!!): محدّثا وإمامًا! وغاية ما وصل إليه أن يكون كُتُبِيًّا فاضلاً!! أو أن يكون نسخةً زائدةً في البلد من تلك المتون التي يحفظها!!! ولا أنفي بذلك أن لهؤلاء فضلا، لكني لا أستجيز أن أدَّعِي لهم ما ليس فيهم من تلك المبالغات في الأوصاف ومن تلك الألفاظ الكاذبة. كما لا أستجيز رَفْعَهم فوق قَدْرِهم؛ لأن هذا زيادةً على كونه كذبًا وإثمًا، فهو أيضًا يضرُّ بالأُمّة: من جهةِ أن هذا التعظيم الذي في غير محلِّه يصنعُ منهم رموزًا للاقتداءِ! ومن جهة أنه يُسْلِمُ قيادةَ الأُمة إلى من =

فأول ما يلزم طالب الحديث: هو إدمان النظر في الصحيحين (صحيح البخاري وصحيح مسلم) ، بل ينبغي أن يضع الطالب لنفسه مقدارًا معينًا من الصحيحين يقرؤه كل يوم ، ليختم الصحيحين قراءة في كل سنة مرة في أقل تقدير ، ويستمر على ذلك أربع سنوات مثلاً ، خلال دراسته الجامعية أو الثانوية ؛ فلا يتخرج إلا وقد قرأ الصحيحين عدة مرات ، ليكون مستحضرًا غالبَ متون الصحيحين .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بقية الكتب التي اشترطت الصحة ، كصحيح ابن خزيمة ، وصحيح ابن حبان ، وموطأ مالك ، ومنتقى ابن الجارود .

ويتمم هذه بسنن أبي داود ، والنسائي ، وجامع الترمذي ، ومسند الدارمي ، وسنن الدارقطني ، والسنن الكبرى للبيهقي.

فيقرأ الطالب هذه الكتب ، بعناية وتدقيق ، ويُكثر من مطالعتها ، وخاصة التي اشترطت الصحة ، وعلى رأسها الصحيحان.

فإن كان طالب العلم هذا ممن أوتي موهبة الحفظ ، وأحب أن يحفظ ، فليجمع عزمَه على ما يستطيعه من هذه الكتب . ويمكنه أن يبدأ بحفظ (الأربعين النووية) وما ألحقه ابن رجب بها لتمام خمسين حديثًا ، ثم ينتقل إلى (عمدة الأحكام) لعبدالغني بن عبدالواحد المقدسي ، ثم إلى (بلوغ

= يظنهم الناسُ علماءَ يستحقّون القيادة ، وهم ليسوا من منصب القيادة في شيءٍ !!

المرام) لابن حجر ، أو (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) لمحمد فؤاد عبدالباقي ، ثم إلى الصحيحين ؛ ثم ما شاء مما يوفقه الله تعالى إليه من الكتب . وأنصحه أن ألا يضيف إلى محفوظه إلا ما حُكِمَ عليه بالصحة والقبول من إمامٍ معتبر ، إلا بعد أن يستوعب ذلك .

ولا أنصحه بحفظ الأسانيد ، وإنما يكتفي بالمتون ؛ حيث إن الغرض من حفظ الأسانيد هو التمكُّنُ من تمييز الصحيح من السقيم ، والحفظ الذي قد يوصل إلى هذا الغرض هو الحفظ الذي كان عليه أئمة النقد ، مما سبقت الإشارةُ آنفًا إلى صورته الباهرة ، وليس حِفْظُ أهل زماننا (ومَن قبلهم بقرون) من جنس ذلك الحفظ ولا يشبهه[1] . فما دام حفظُ ما يستوجبه نقدُ الحديث من الأسانيد غيرَ مقدورٍ عليه[2] ، فلماذا نحفظها ؟!! اللهم إلا إن

---

(١) ولمَّا ذكر الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ) مُسْنَدَ عمر للإمام أبي بكر الإسماعيلي (ت٣٧١هـ) قال : « طالعتُه ، وعلَّقتُ منه ، وانبهرتُ بحفظ هذا الإمام ، وجزمتُ بأن **المتأخرين على إياسٍ من أن يلحقوا المتقدّمين في الحفظ والمعرفة** » . تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٤٨) .

(٢) لأنه لا يكفي لبلوغ درجة نقد الحديث من خلال المحفوظ أن تحفظَ أسانيد أحاديث الكتب الستة ، ولا التسعة ، ولا التسعين !! كيف وهو يحتاج (مع ذلك الحفظ الذي انتهى زمن أهله) إلى استحضار تراجم الرواة (جرحا وتعديلا ، وطبقةً ، وسماعًا وإرسالا ، وغير ذلك من متعلَّقات الترجمة)، وتحرير درجة المختلَف فيهم ، ومعرفة تعليلات نُقاد الحديث وترجيحاتهم .. وغير ذلك !!!

اللهم .. إلا إن كان الحكمُ على الحديث قد أصبح عندنا لا يحتاج إلا إلى النظر في إسنادٍ =

كان المقصود بحفظها التباهي بسردها (مبتورةً غالبًا ، ومُشوّشةً أحيانا كثيرة) ، ليُقال عنه : حافظ !! فقد قيل ، ثم كان ماذا؟!! وإن كان للحافظ مقصدٌ حسنٌ غيرُ هذا ، فلا يصحّ أن يكون ذلك المقصدُ مُوهِمًا صغارَ الطلبة أن هذا الحِفْظَ قد أعطى صاحبَه ملكةَ النقد!!!

وقد قال مجد الدين ابن الأثير (ت٦٠٦هـ) في مقدمة كتابه (جامع الأصول) معلّلا سببَ حذفه الأسانيد من كتابه : « لأن الغرضَ من ذكر الأسانيد كان أولاً لإثبات الحديث وتصحيحه ، وهذه كانت وظيفة الأولين ، وقد كَفَوْنا تلك المؤونة ، فلا حاجةَ بنا إلى ذكرِ ما قد فرغوا منه، وأغْنَوْا عنه »[(١)] .

وقال أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ) في سياق ذكره لدرجات علوم الحديث : «الدرجة الثانية : حفظُ أسانيدها، ومعرفة رجالها ، وتمييز صحيحها من سقيمها[(٢)]. وهذا كان الأهم في الزمن الأول ؛ حيث لم تكن كُتُبٌ

= واحدٍ من أسانيد الحديث ! أوفي بعض أسانيده دون بقيتها التي قد تُعِلُّهُ أو تُصَحِّحُه ! وإذا كنا سنكتفي بما قاله الحافظ ابن حجر عن الراوي في(التقريب) !! وهكذا سنسير في التصحيح والتضعيف بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير!!! فإن كان هذا هو علم الحديث (وحاشاه) ، فكان ينبغي أن يشارك أهلَه فيه : الصُّنّاعُ وأربابُ الحِرَفِ ، وكل من لا ناقة له فيه ولا جمل !!!

(١) جامع الأصول : لابن الأثير(١/ ٥٣-٥٤) .

والذي قد كُفيناه وأغنونا عنه هو : تقييد الأسانيد ، فهي مدونةٌ في الأمهات وغيرها من مصادر السنة الأصلية .

(٢) أي حفظًا دون الرجوع إلى الكتب .

مسطّرة ، ولا أمورٌ محرّرة . وقد كُفيَ المشتغل بالعلم هذا التعب بما قد صُنّفَ وأُلِّفَ من الكتب »[١] .

لكنّ الذي قد كفاناه الأولون هو حفظُ الأسانيد في الصدور إلى أن حفظوها في السطور ، وبعد أن حُفظت الأسانيدِ في الكُتب صار حِفْظُها هو حِفْظَ تلك الكتب من التَّلَف والضياع . وأما ما سوى ذلك من وجوه خدمةِ السنة ، ومن أظهرها (والذي لا يَخْفَى على ابن الأثير ولا على أبي شامة) الترجيحُ بين أقوال الأئمة الأوائل المختلفة في التصحيح والتضعيف = فهذا (وغيره) ما زال في حاجة إلى تتميم ، ولا أتصوّرُ خفاءَ ذلك على أحد ؛ لظهوره . وإلا .. فهل يخفى على أحدٍ أن هناك خلافاتٍ كثيرةً بين الأئمة الأوّلين في التمييز بين الصحيح والضعيف ، تنتظر من يُبيِّنُ الراجحَ فيها ؟! فكيف أسمح لنفسي أن أفهم كلام عالمين على وجهٍ يكون كلامهما فيه مخالفًا لهذا الأمر التامّ الوضوح ؟!!![٢]

فإن قرأ الطالبُ تلك الكتب ، أو حَفِظَ منها ما حفظ ، فينبغي أن يُكَمِّلَ قراءته بالنظر في شروحٍ مختصرة لكتب الحديث ، مثل شرح النووي

---

(١) شرح الحديث المُقْتَفى في مبعث النبي المصطفى ﷺ : لأبي شامة (٤٦) .

(٢) وهذا التأويل لكلامهما هو من باب الاعتذار عن ظاهر عبارتهما المخالفة للصواب البيّن، فإن كان اعتذارًا مقبولا .. فبها ونعمت ، وإلا فيُؤخَذُ الحقُّ الذي فيها ويُترك ما خالفه !

لصحيح مسلم ، أو (المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم) للقرطبي ، وشرح الطيبي لمشكاة المصابيح ، و(فيض القدير) للمناوي. وأسهل من ذلك كله ، أن يضع الطالب بجواره أثناءَ قراءته لكتب السنة كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير ، لأنه كتاب يُعْنَى بتفسير الكلمات الغريبة لغويًا الواردةِ في الأحاديث والآثار ؛ ليستطيع من خلال ذلك أن يفهم المعنى العامَّ للحديث ، وأن لا يروي ما لا يدري . فإن أراد التوسع : فعليه بمثل (التمهيد) لابن عبدالبر ، و(شرح مشكل الآثار) للطحاوي ، و(طرح التثريب) للعراقي ، و(فتح الباري) لابن حجر

أما بالنسبة لكتب علوم الحديث والمصطلح : فإن كان الطالب صغير السن (في مثل المرحلة الدراسية المتوسطة) فيبدأ بـ(نخبة الفِكَر في توضيح مصطلح أهل الأثر) لابن حجر ، مع شرحٍ ميسَّرٍ لها[1] كـ(تحقيق الرغبة في توضيح النخبة) للدكتور عبد الكريم الخضير. ويُمكنه أن يحفظ (النخبةَ)

---

(١) كنتُ في الطبعة الأولى قد ذكرتُ (البيقونية) مجاراةً للمتأخرين والمعاصرين في البداءة بها ، لكني عزمتُ على عدم ذكرها ، بل على النصيحة بعدم البداءة ولا الاختتام بها ! فهي نظمٌ ضعيفٌ ، لا يُعطي تصوُّرًا صحيحًا عن علم الحديث ، بل يُعطي تصوّرا مشوّشًا ومعلوماتٍ مغلوطةً مُرْتَبِكةً عنه . بخلاف (النخبة) تمامًا ، فهي خيرٌ من (البيقونية) بكثير . وأولى من (البيقونية) أيضًا : (التذكرة) لابن الملقِّن (ت٨٠٤هـ) ، وشرحها للسخاوي(ت٩٠٢هـ) المسمى بـ(التوضيح الأبهر) .

إن رغب في الحفظ[١]، أو بعضَ منظوماتها : كنظم كمال الدين الشُّمُنِّي (ت٨٢١هـ) الذي شرحه ابنه العلامة تقي الدين الشُّمُنِّي (ت٨٦٨هـ) في كتابه (العالي الرُّتبة في شرح نظم النخبة) ، أو (قَصب السُّكَّر[٢] نظم نخبة الفِكَر) للأمير الصنعاني (ت١١٨٢هـ) ، مع شرحه له الذي سماه بـ(إسبال المطر) . أو (بداية المحدّث : ترتيبُ وتشجيرُ ونظمُ متن نخبة الفكر) لياسر عجيل النشمي . وإن كنتُ أُفَضِّلُ للطالب أصلَ النخبة، مع شرحٍ مختصر لها في درسٍ حاضرٍ أو مسجَّل . ويمكن البَداء أيضًا بأحد الكتب المعاصرة في علوم الحديث : كـ(تيسير مصطلح الحديث) للدكتور محمود الطحان ،

---

(١) إذا رغب المرءُ أن يتخصّصَ في علم من العلوم تخصُّصًا حقيقيًّا ، فلا يلزمه أن يحفظ متنًا من متونه ؛ لأن المقصودَ من حفظِ المتون هو استحضار مسائل العلم ، والمتخصِّصُ على الحقيقة سيكون مستحضِرًا للمسائل دون حفظٍ ؛ لأنه مداومٌ على القراءة والبحث والدراسة ، فلن يُخشَى عليه نسيانُ مسائل علمه الذي يُصاحبه عامّةَ وقته ! وهذا بخلاف العلم الذي لا يَتَخَصّصُ فيه المرء ، فهذا هو الذي يكونُ حفظُ متنٍ من متونه وجيهًا ؛ لأن بُعده عنه سببٌ طبيعيٌّ لنسيان مسائله ، فيأتي الحفظُ حينها مُعينًا على تثبيته .

(٢) ما زلت أستغرب هذا الاسم الذي : لا تنزَّهَ عن تَكَلُّفِ السَّجْعَةِ في عنوان الكتاب ، ولا أتقنها ! إلا أن يكون المؤلفُ قد سمّاه بـ(قصب السَّكَر) ، فالسَّكَرُ هو أصل كلمة السُّكَّر التي عُرّبت عنها . فيكون عنوانُ الكتاب وشرحه بناءً عليه عنوانًا لذيذَ السَّجْعَةِ: (إسبال المطر على قصب السَّكَر نظم نخبة الفِكَر) !!!

أو(تيسير علوم الحديث) لعمرو عبد المنعم سليم ، أو(شرح لغة المحدث) لأبي معاذ طارق بن عوض الله .

وإن كان الطالبُ في المرحلة الثانوية أو بداية الجامعية ، أو أنه انتهى من المرحلة السابقة وتجاوزها بنجاح : فيبدأ بـ(نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) لابن حجر ، أو (الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير) لأحمد محمد شاكر ، أو (الغاية شرح الهداية) للسخاوي . و(النزهة) أولاها عندي ، فعليه بإتقانها من خلال شروحها وحواشيها الكثيرة ، أومن خلال دروسها المُقامة أو المسجّلة . ومن أجود شروحها (اليواقيت والدرر) للمناوي (ت١٠٣١هـ) . ولي شرحٌ عليها منسوخٌ عن تسجيلِ دروسِها ، أرجو أن يجد الطالب فيه بُغيته :

ثم ينتقل إلى كتاب ابن الصلاح(ت٦٤٣هـ) : (معرفة أنواع علم الحديث) المشهور بـ(مقدمة ابن الصلاح) وبـ(علوم الحديث) ، ويضم إليه أهمَّ شروحِه والكتبِ الخادمة له ، وهي: (التقييد والإيضاح) للعراقي، ونظمُه له المسمى بـ(التبصرة والتذكرة) ، وشَرْحُه هو أيضًا لهذا النظم . و(النكت على كتاب ابن الصلاح) للزركشي (ت٧٩٤هـ) ، و(النكت على كتاب ابن الصلاح) لابن حجر(ت٨٥١هـ) . وقد شرحتُ كتاب ابن الصلاح بكماله شرحًا مطوّلا في دروس مسجّلة ، وهو أوسع شرحٍ له حتى

الآن ، وأسأل الله تعالى أن يبارك فيه !

ويتلو ذلك كتاب (الاقتراح) لابن دقيق العيد(ت٧٠٢هـ) ، ولـه نظمٌ نافعٌ للعراقي ، أذكره لهواة الحفظ . مع كتاب (الموقظة) للذهبي ، والذي قد شرحتُه في كتاب مطبوعٍ عن أصله المسجَّل .

ثم ينتقل إلى الكتب الموسعة في علوم الحديث ، مثل (تدريب الراوي) للسيوطي ، (والبحر الذي زخر) لـه ، و(فتح المغيث) للسخاوي ، و(توضيح الأفكار) للصنعاني .

ثم يدرس بعمق كتاب (الكفاية) للخطيب ، و(معرفة علوم الحديث) للحاكم، و(المدخل إلى الإكليل) له ، و(شرح علل الترمذى) لابن رجب[1] ، ومقدمة (التمهيد) لابن عبدالبر ، ومقدمة (الإرشاد) للخليلي .

ثم ينتهي بالتفقّه في كلام الشافعي في (الرسالة) ، ومسلم في مقدمة (الصحيح) ، وأبي داود في (رسالته إلى أهل مكة) ، ونحوها.

وبعد تعلمه لـ(نزهة النظر) أو ما ذكرناه في درجتها ، وأثناء قراءته لكتاب ابن الصلاح ، عليه أن يكثر مطالعة كتب التخريج ، مثل (نصب الراية) للزيلعي ، و(البدر المنير) لابن الملقن ، و(التلخيص الحبير) لابن حجر ، و(تنقيح التحقيق) لابن عبد الهادي، والسلسلتين و(إرواء الغليل) للألباني . ويحاول خلال هذه القراءة أن يوازن بين ما عرفه من كتب المصطلح وما

---

(١) وقد علَّقتُ عليه في دروس مسجّلة .

يقرؤه في كتب التخريج تلك ، ليرى نظريًّا : طريقةَ التطبيق العملي لقواعد علوم الحديث ، و طريقةَ إطلاقاتهم للمصطلحات ومواضعَ استخدامِها .

وإذا ما توسّع الطالبُ في قراءة كتب التخريج السابقة ، فعليه أن يدرس كتابًا من الكتب الحديثة في أصول التخريج ، مثل (أصول التخريج ودراسة الأسانيد) للدكتور محمود الطحان. ولي دروسٌ مسجّلة في التخريج ، وقد نُسخت في مذكرة ، مبذولة على مواقع الشبكة العنكبوتية (النت) . ولولا أني أحسب أن في هذه المذكّرة ما ليس في غيرها من الفائدة ، لما نوّهتُ بذكرها .. وهي لي !

ثم يدرس كتاباً أو أكثر في علم الجرح والتعديل ، مثل (ضوابط الجرح والتعديل) للدكتور عبد العزيز العبد اللطيف ، و(ضوابط الجرح والتعديل عند الإمام الذهبي) لأبي عبد الرحمن محمد الثاني ، (والجرح والتعديل) للدكتور إبراهيم اللاحم ، و(خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل) من تأليفي .

وعليه أن يدرس أيضاً كتابًا من الكتب التي تُعَرِّفُ بمصادر السنة وبمناهجها ، كـ(الرسالة المستطرفة) للكتاني ، و(بحوث في تاريخ السنة المشرّفة) للدكتور أكرم ضياء العمري ، و(الفهرس الوصفي لكتب الحديث وعلومه في مكتبة جامعة الشارقة) للدكتور محمد عجاج الخطيب ، و(التصنيف في السنة النبوية وعلومها : من بداية المنتصف الثاني للقرن الرابع عشر الهجري وإلى نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري)

للدكتور خلدون الأحدب . وغيرهما من الكتب التراثية القديمة والدراسات المعاصرة التي تتكلم عن هذا الموضوع ، والتي قد يكون بعضُها جزءًا من مقدّمة تحقيق الكتاب نفسه ، أو خَتْمًا من أختام سماعه القديمة[١] ، أو افتتاحياتها[٢] . كما أنصحه بأن يُطالع كُتُبَ السنة (على عظيم تنوّعها)

---

(١) من أمثال :

١- عمدة القاري والسامع في ختم الصحيح الجامع : للسخاوي .

٢- وغُنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج : له .

٣- وبذل المجهود في ختم سنن أبي داود : له .

٤- وبُغية الراغب المتمنّي في ختم سنن النسائي رواية ابن السني (وهي السنن الصغرى) : له.

٥- والقول المعتبر في ختم سنن النسائي رواية ابن الأحمر(وهي السنن الكبرى) : له.

٦- والإلمام في ختم سيرة ابن هشام : له .

٧- والانتهاض في ختم الشفا لعياض : له .

٨- ومجلس في ختم كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى : لابن ناصر الدين الدمشقي(ت٨٤٢هـ) .

٩- وختم سنن الإمام أبي داود : لعبد الله بن سالم البصري(ت١١٣٤هـ) .

١٠-وختم جامع الترمذي : له أيضًا .

وكلها مطبوع بحمد الله .

(٢) من أمثال:

١- مقدمة إملاء الاستذكار لابن عبد البر :لأبي طاهر السِّلَفي(ت٥٧٦هـ).

٢- وافتتاح القاري لصحيح البخاري: لابن ناصر الدين الدمشقي .

بنفسه، وأن يكشف أسرارها بجهده ؛ فلن يقوم الخبرُ مقام المشاهدة أبدًا . وعليه للقيام بذلك الإكثار من زيارات المكتبات الثرية بكتب الحديث ومصنفاته ، ليطالعها ويعرف مناهجها وطبعاتها ومميزات كل طبعة .. فإن هذا كله علمٌ لا يكون اكتسابُه بأحسن من هذا الطريق !

ثم يبدأ الطالبُ بالتخريج ودراسة الأسانيد بنفسه ، وكلّما بَكَّرَ في ذلك (ولو من أوائل طلبه) كان ذلك أعظمَ فائدةً وأكبرَ عائدةً ؛ لأن هذا التخريج يجعله يطبقُ القواعد .. فلا ينساها ، ويبدأ بملاحظة طريقة الاستفادة منها ، وستلوحُ له الإشكالات الكثيرة التي ستكون دافِعَه إلى مزيد التعمُّقِ والتفقُّهِ في العلم . وهو خلال ذلك أيضًا : يتعرَّفُ على مصادر السنة ومناهجها ، ويتمرّنُ في ساحات هذا العلم . والغرض من هذا التخريج (كما سبق) هو الممارسة للتعلُّمِ .. لا للتأليف ؛ وقد تقدّمَ الحديثُ عن أهمية هذه الممارسة في علم الحديث .

وأثناء قيامه بالتخريج ، عليه أيضاً أن يخصَّ علمَ الجرح والتعديل التطبيقي بمزيد عناية كذلك ؛ وذلك بقراءة كتبه الكبار ، مثل: (تهذيب التهذيب) لابن حجر ، و(ميزان الاعتدال) للذهبي ؛ وكتبه الأصول ، مثل: (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم ، و(الضعفاء) للعقيلي ، و(المجروحين) لابن حبان ، و(الكامل) لابن عدي ، وكتبه التي هي أصول الأصول ، مثل: تواريخ يحيى بن معين وسؤالاته هو والإمام أحمد ، و(التاريخ الكبير) للبخاري ، ونحوها . وهو خلال قراءته هذه يحاول أن يوازن بين :

استخدام الأئمة لألفاظ الجرح والتعديل ، وما ذُكر عن مراتب هذه الألفاظ في كتب المصطلح . وإن مرَّ به أحدُ الرواة الذين كَثُرَ الاختلافُ فيهم ، فعليه أن يطيل في دراسته ، فإن هؤلاء الرواةَ أرضٌ خِصْبةٌ للدراسة والاستفادة . وعليه أثناء دراسته لهؤلاء الرواة ، أن لا يُغْفِلَ أحكامَ الأئمة التطبيقية على الرواة ، التي تضمّنتها أحكامُهم على أحاديثهم (من قَبولٍ ، أو ترجيحٍ ، أو رَدٍّ وتوهيم) ، وهو خلال ذلك يُوازن بين عباراتهم المختلفة وسياقاتها ، وهل خرج كلامُ بعضِهم عن الاصطلاح العام فيها ، ليختم ذلك باستخلاصِ حُكمٍ فيهم مُستفادٍ من أحكام الأئمة عليهم ، سواء منها الأحكام الكُليّة أو الجزئية (من خلال أحكامهم على مروياتهم) .

وما يزال الطالبُ في التَّرقِّي العلميِّ على درجات علم الحديث السامية ، من خلال قراءة ودراسة كتبه ، فلا يدع منها شاردة ولا واردة ، وفي التوسع في التخريج ، وفي تمحيص علم الجرح والتعديل ؛ حتى يصل إلى منزلة يصبح قادراً فيها على دراسة كتب العلل ، مثل : (العلل) لابن المديني ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وأجلها (علل الأحاديث) للدارقطني . فيقرأ الطالب هذه الكتب قراءةَ تدقيقٍ شديد ، وتفقُّهٍ عميق ؛ ليدريَ بعضًا من أساليب الأئمة في عرض علل الأحاديث ، وطرائقَ اكتشافها ، ومآخذَهم في الحكم على الأحاديث ، ومنطلَقاتِهم التي يؤسِّسُون عليها ، والقرائنَ والملابسات التي يراعونها في ذلك .

وفي جميع هذه العلوم الحديثية بحوثٌ معاصرة ودراساتٌ مُتخَصِّصةٌ ،

فيجب الوقوف عليها ، ولا يصحُّ إغفالها . وأما الذي يدّعي العنايةَ بالعلم والتخصُّصَ فيه ، ثم هو لا يلتفت إلى العَصْريين إلا بعين الإزراء ، فتجدُه يفتخرُ (قالاً أو حالاً) بأنه لا يعرف بحوثَهم كلَّها ، وأنه لا يرى حاجةً إليها ، وأن كتب السابقين كافيةٌ على وجه التمام = فهو بعيدٌ عن الحقّ ، محرومٌ من خيرٍ كثير[1] .

---

(١) وليس مقبولاً أن يَزْهَدَ أحدٌ (أو يُزَهِّد) في بحوث المعاصرين ، بحجة أن في كتب السابقين غُنيةً عنها ! فإن هذا استخافٌ بالعلم ، وإزراءٌ به : أن يتصوّر المرءُ أنه قادرٌ على تحريرِ مسائله كلِّها دون معونة أحد !!

وأما إنِ ادّعى أحدٌ أن كتب السابقين مغنيةٌ تمامًا .. فماذا يعملُ أخونا هذا إذن بتعلُّمِ العلم؟!! إذ مجرّدُ النقل لا يحتاج إلى كثرة عناء! وأما إن كانت كتبهم ما زالت محتاجةً إلى إتمام البناء ، فهذا ما يفعله الباحثون المعاصرون ، أو يدّعون محاولةَ الوصول إليه ، فمنهم من وَفَّى ، ومنهم من عجز ، بل منهم من خان وكذب!! فلا يصحّ ولا يجوز أن نضع في كفّةٍ واحدة : الباحثَ الذي وفَّى وبرَّ في بحثه (وإن أخطأ ، فكيف إذا أصاب) مع الباحث الذي خان العلمَ وضلَّلَ طُلّابَ المعرفة ، ولا يجوزُ أن أُعْرِضَ عن جميع البحوث المعاصرة بحجة وجود بحوثٍ هزيلةٍ أو خائنة فيها ، ما دام ما يخالفها من البحوث المتينةِ والأمينةِ موجودًا !

وللحقِّ أقول : لَكَمِ اصْطدْتُ فائدةً من بطن عَجْزِ أحدهم في بحثه ، فضلا عن هديةٍ ثمينةٍ لآخرَ أهدانيها من رحابِ الإجادة والإحسان في دراسته !!

وأخشى ما أخشاه أن يكون الحسدُ أو الكِبْرُ وراءَ بعضِ تلك الدعاوَى العريضة ، التي ظاهرها تعظيمُ علمِ السابقين ، وباطنها الألمُ من منافسة العَصْري ، أومن مشاهدَةِ النفسِ فوق الآخرين ، وأقْبِحْ بالأمرين من خَلّة !!!

فإذا وصل طالبُ الحديث إلى هذه المرحلة ، فلابد أن رأسه قد أمتلأ بالمشاريع العلمية والبحوث الحديثية ، التي تزيده تَعَمُّقًا في علم الحديث . فليبدأ (على بركة الله) مشوارَ العلم الطويل ، منتفعًا ونافعًا ، مستفيدًا ومفيدًا.

فإن بلغ طالب الحديث هذه الرُّتبة ، وأسبغ الله عليه نِعَمَ توفيقه وتسديده ، ومدَّ عليه عُمرَه في عافية ، وطالت ممارسته لهذا العلم ؛ فيا بُشْرَى العالمِ الإسلامي ، فقد وُلِدَ له مُحَدِّث !!

وأُنبِّهُ (أخيرًا) أنّ هذا المنهج التعليمي إنما نطرحه للطالب الذي لم يجد من يوجهه . أما من وجد عالماً ربانيا يعتني به توجيهًا وتعليمًا ، فعليه أن يُقْبِلَ عليه بكُلِّيته ، وأن يلزم عتبةَ داره ؛ فهو على خيرٍ عظيم ، وعلى معارجِ العلمِ يترقَّى ، ما دام جاثيًا في حلقة ذلك العالم .

والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتب

الشريف حاتم بن عارف بن ناصر العبدلي العوني

دليل الموضوعات التفصيلي

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٣
التمهيد	٩
* **شرف علم الحديث وشرف حملته**	١٣
- مكانة السنة من القرآن الكريم	١٣
- أمر الله تعالى في القرآن بطاعة النبي ﷺ والاقتداء به	١٦
- بيان السنة لمنزلتها ومنزلة حملتها	١٨
- أهمية السنة عند وقوع الفتن	٢١
- طلب العلم وعلاقته بالنيّة	٢٢
* **أهم ميزات علم الحديث وأوضح خصائصه**	٢٥
* **الأولى : أنه علم شديد المأخذ ، صعب المرتقى ، دقيق المسالك ، بعيد الغور : ويُواجَهُ بالتخصُّص**	٢٦
- قلة المتخصصين في علم الحديث	٢٧
- لعمق علم الحديث لا تدركه أكثر العقول	٢٨
- شهوة الحديث ولذّته ودَوْرُها في حفظ السنة	٣٢
- عَوْدٌ إلى قلّة أهل الحديث	٣٧
- أهميّة التخصُّص في العلوم عموماً	٣٩
- فضل المتخصِّصين على المتفنِّين	٤٠
- « من تعلَّم علماً فَليُدَقِّق ؛ لكيلا يضيع دقيق العلم »	٤٣
- العلوم التي لا يجوز أن يُقصِّر المتخصص في تحصيلها	٤٣

الموضـــوع	الصفحة
- ترابط العلوم الإسلامية ببعضها	٤٤
- طريقة تحصيل المتخصِّص للعلوم الخارجة عن تخصّصه	٤٦
- الاستدلال بالسنة على صحّة التخصّص في السنة ولو على حساب قصور العلم بعلم الفقه	٤٦
- بيان أن التخصّصات المختلفة لا يُعاب على أحد اختار أحدها	٤٨
- الذبُّ عن ناقلي السنة الذين قَصُر علمهم بعلم الفقه	٥١
- استحالة الجمع بين علم الحديث وعلم الفقه على وجه الكمال	٥٢
- علمُ الحديث علمٌ إن لم تُعْطِهِ كُلَّك لم يُعطِكَ بعضه	٥٤
- خاصيّة التخصّص في علم الحديث	٥٥
- توجيه العبارات التي عابتْ مَنْ لم يجمع مع الحديث فِقْهاً	٥٨
- ما هو الأمر المعيب حقّاً على طلبة الحديث	٦٣
*** الثانية : أنه علمٌ قويُّ الترابط بين أجزائه ، مُتداخلُ الأصول والقواعد : ويُواجَهُ هذا بالاستحضار القوي الواسع**	٧١
- أهميّة الحفظ والاستحضار لعلم الحديث	٧١
- الأسباب المُعِينة على الحفظ :	٧٣
١- حُسْن النيّة	٧٣
٢- اجتناب ارتكاب المحرّمات	٧٤
٣- العمل بالحديث	٧٥
٤- اختيار الأوقات المناسبة للحفظ في اليوم	٧٧
٥- اغتنام فترة الصّبا والشباب	٧٩
٦- اختيار الأماكن المناسبة للتحفُّظِ	٨٠
٧- الجهر بقراءة ما يُرادُ حِفْظُه	٨١
٨- تقليل القَدْر المحفوظ يومياً	٨٢

الموضــوع	الصفحة
٩- إحكام الحفظ بكثرة تكراره	٨٥
١٠- تعهّد المحفوظ	٨٧
١١- المذاكرة مع الأقـران	٨٨
- طريقتا الحفظ (المزايا ، والعيـوب) . .	٩٤
الأولى : تقريرُ قَدْرٍ من العلم يومياً ، يحفظه الطالـب	٩٤
- الحذر من تأثير هذه الطريقة على مَلَكة الفهـم	٩٥
- تقديم الفهم على الحفـظ	٩٦
- عدم الاغترار باستطالة الحُفّاظ بحفظهم على الفقهاء	١٠٧
الثانية : إدمان النظر والبحث والكتابة	١٠٩
* الثالثة : أنه علمٌ لا تضبط جميعَ جزئياته قواعدُ مطّردةٌ دائماً ، وإنما قواعده وأصوله أغلبيّة : ويُواجَهُ هذا بطول الممارسة . . .	١١٤
- نصيحة الشباب أن لا يحقّروا أنفسهم لصغر أسنانهم	١١٨
- لك في سير العلماء قدوة أيها الشابّ	١٢٠
* الرابعة : أنه علمٌ متراميةٌ أطرافُهُ ، متشعبةٌ أنحاؤه : ويُواجَهُ هذا بالمكتبة الواسعة المتجدّدة	١٢٢
- لا تقل : لا أشتري كتاباً نافعاً حتى أقرأ ما عندي	١٢٧
- لا تقل : يُغنيني كتابٌ عن كتاب	١٢٧
- كلام رائع للخطيب البغدادي عن حال العلماء مع الكتب	١٢٩
منهج القراءة والتعلّم لكتب الحديث والمصطلح	١٣٣
- اختلاف المناهج باختلاف الأزمان والأعراف والقُدرات	١٣٣
- منهج القراءة في كتب الحديث النبوي الشريف	١٣٧
- نصائح في حفظ الأحاديث النبوية	١٣٧

الموضـــوع	الصفحة
- النصيحة بعدم حفظ الأسانيد	١٣٨
- شروح الحديث المنصوح بها	١٤١
- منهج القراءة والدراسة لعلوم الحديث	١٤١
- قراءة كتب التخريج التطبيقيّة والنظريّة	١٤٤
- كتب الجرح والتعديل النظريّة	١٤٥
- التعرّف على مناهج كتب السنة والتراجم	١٤٥
- النصيحة بتخريج الحديث من وقت مُبكِّر في الطلب	١٤٧
- النصيحة بقراءة كتب الجرح والتعديل وممارسته عمليّاً	١٤٧
- قراءةُ كتب العلل قراءةَ فهمٍ وتفَقُّهٍ	١٤٨
- العناية بالبحوث الجادَّة للمعاصرين	١٤٩
- تباشير مولد المحدِّث	١٥٠
- خاتمة الكتاب	١٥٠

* * *

دليل الموضوعات الإجمالي

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد	٩
شرف علم الحديث وشرف حملته	١٣
أهمُّ مُـمَيِّزاتِ عِلْمِ الحديثِ وأوضحُ خصائصِهِ	٢٣
الأولى : أنه علمٌ شديدُ المأخذِ ، صـعبُ المرتقى ، دقيـقُ المـسالك ، بعيـدُ الغور . ويُواجَهُ هذا بالتخصُّص	٢٤
الثانية : أنه علمٌ مـترابطٌ بقـوة ، متـداخلُ الأصـول والقواعـد . ويُواجَـه بالاستحضار الواسع	٦٦
الثالثة : أنه علمٌ لا تَضْبِطُ جميعَ جزئياته قواعدُ مطردةٌ دائمًا ، وإنـما قواعـدُه وأصولُه أغلبيّةٌ . ويواجَه هذا بطول الممارسة	١٠٤
الرابعة : أنه علم مترامِيةٌ أطرافه ، متشعّبةٌ أنحاؤه .ويُواجَـهُ هـذا بالمكتبـة الواسعة المتجددة	١١٢
منهج القراءة والتعلّم لكتب علم الحديث والمصطلح	١٢١

* * *

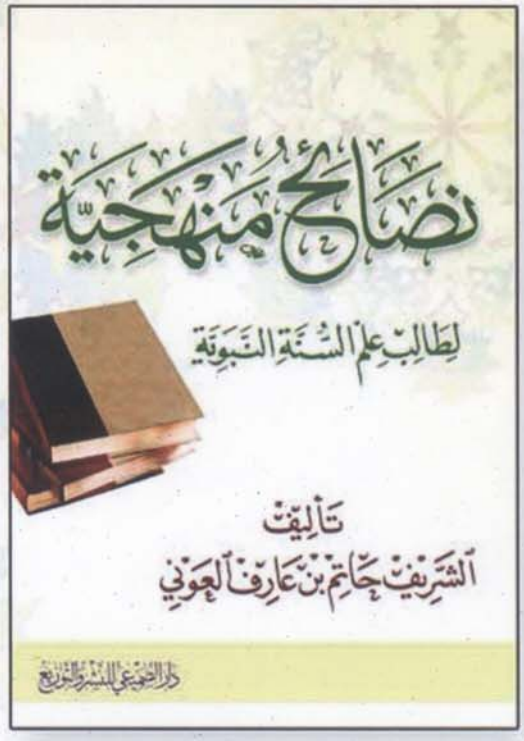

دار الصميعي للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ص ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المركز الرئيسي : الرياض ـ السويدي ـ شارع السويدي العام
هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم : عنيزة بجوار مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ ـ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨
الموزع في المنطقة الغربية والجنوبية / جوال ٠٥٠٩٧٧١٥٦٨
مدير التسويق ٠٥٥٥١٦٩٠٥١

0111038
14.00 62

تصميم Media
014276888 - 0504276888

ردمك: ٤-٤٨-٨٠٥٠-٦٠٣-٩٧٨

مطبعة النرجس-ت:٢٣١٦٦٥٣ ف:٢٣١٦٨٦٦